الباب الثانى

دراسات فى ضوء القرآن والسنة

ويتضمن هذا الباب الفصول الآتية :

الفصل الأول : مفهوم وحدة الأمة الإسلامية.

الفصل الثانى : القرآن الكريم وخصائص المجتمع الإسلامى .

الفصل الثالث : رؤية إسلامية للمسئولية العالمية المعاصرة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مفهوم وحدة الأمة الإسلامية

ويتضمن هذا الفصل:

القسم الأول « مقدمات عامة »:

١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن الكريم .

٢ ـ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة .

٣ ـ الوحدة والخصائص المميزة .

٤ ـ الوحدة الكمية والوحدة النوعية .

القسم الثانى « الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية »:

١ ـ البعد الدينى . ٢ ـ البعد الإنسانى . ٣ ـ البعد الاجتماعى .

٤ ـ البعد الجغرافى . ٥ ـ البعد الحضارى . ٦ ـ البعد المصيرى .

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية:

١ ـ الفرقة والتنازع . ٢ ـ موالاة الأعداء .

خاتمة: واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل.

obeikandl.com

obeikandl.com

ينقسم بحثنا[1] حول « مفهوم وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن والسنة » إلى قسمين، نتحدث فى القسم الأول منهما عن بعض النقاط التمهيدية والمقدمات العامة التى نمهد بها للقسم الثانى الذى نتناول فيه الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم نختم حديثنا بالإشارة إلى بعض المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية ، ونتناول فى هذا الصدد أيضًا واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل .

القسم الأول : مقدمات عامة

١ ـ مفهوم الأمة الواحدة فى القرآن :

إذا بحثنا عن كلمة « وحدة » فى المعاجم فسنجد أن الوحدة (بفتح الواو) تعنى الانفراد ، تقول: رأيته وحده، أى: منفرداً، ووحده توحيداً: جعله واحداً، ورجل متوحد أى: منفرد، ولابن باجة الفيلسوف كتاب بعنوان « تدبير المتوحد ». والتوحيد: الإيمان بالله وحده، والمسلمون موحدون لأنهم أفردوا الله بالعبادة دون غيره، وتوحَّد الله إنساناً بعصمته أى: عصمه ولم يكله إلى غيره [2].

والملاحظ أن كلمة الوحدة مضافة إلى الأمة ـ أى: وحدة الأمة ـ لم ترد فى القرآن الكريم، ولكن ورد وصف الأمة بأنها أمة واحدة. فالتركيز فى القرآن قد جاء ـ إذن ـ على مفهوم الأمة التى توصف بأنها أمة واحدة وليس على مفهوم الوحدة التى تضاف إلى الأمة. وهذا يعنى أن الأمة الواحدة هى الأصل، أما مسألة

---

(١) قدم هذا البحث إلى ملتقى الفكر الإسلامى الثانى والعشرين الذى عقد بالجزائر فى الفترة من : « ٣٠ / ٨ ـ ٥ / ٩ / ١٩٨٨م » .

(٢) راجع القاموس المحيط ومختار الصحاح .

توحيد الأمة ووحدتها فقد كانت متأخرة فى الزمان بعد أن طرأ الاختلاف على الأمة مما استدعى القيام بجهود كبيرة لإعادتها إلى أصل نشأتها عن طريق الرسالات السماوية المتعاقبة.

فنحن نقرأ فى القرآن الكريم وصف الأمة بأنها واحدة فى موضعين : فى سورة الأنبياء (آية ٩٢) يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ .

وفى سورة المؤمنون (آية ٥٢) :

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وباستعراض كتب التفسير نجد أن السياق الذى وردت فيه هاتان الآيتان يدل على أن المراد بالأمة الواحدة أمة الأنبياء، فهى «أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتنهج نهجاً واحداً هو الاتجاه إلى الله دون سواه، أمة واحدة فى الأرض، ورب واحد فى السماء لا إله غيره ولا معبود إلا إياه، أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء» (١).

ويرى بعض المفسرين أن الإشارة بالأمة الواحدة فى سورة الأنبياء تنصرف إلى الأمة المحمدية، فهى ملتكم التى يجب أن تتمسكوا بها ولا تنحرفوا عنها . . هى ملة واحدة كما عرفتم من الأمم مع أنبيائهم، أى: ملة واحدة غير مختلفة فى الأصول والعقائد (٢).

ويقول الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » : إن الأمة بمعنى الملة، والإشارة هنا بالأمة الواحدة فى هاتين الآيتين إلى ملة الإسلام. والمعنى : « إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها بأنها ملة واحدة غير مختلفة » (٣).

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب، طبعة دار الشروق مجلد ٤ ص ٢٣٩٥ وما بعدها . وكذلك ص ٢٤٦٩.

(٢) راجع : التفسير الواضح لشيخ محمد محمود حجازى ج ١٧ ص ٣٤.

(٣) راجع : تفسير الكشاف للزمخشرى ص ١٠٥ ج ٣.

ولعل هذا التفسير يلتقى أيضاً مع تلك الدعوة التى دعا بها إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (١).

وفى تفسير الفخر الرازى لآية سورة (المؤمنون) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ، يرد على اعتراض قد يرد على الأذهان يقول : كيف يكون دين الأنبياء واحداً (المعبر عنه هنا بالأمة الواحدة) مع أن شرائعهم مختلفة ؟

ويقول الفخر الرازى فى رده على هذا الاعتراض : « إن المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته. وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافاً فى الدين، فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء أن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هنا.

ويدل على ذلك قوله: ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه، فلا مدخل للشرائع وإن اختلفت فى ذلك » (٢).

ومن ذلك يتضح أن الوحدة هنا تعنى وحدة المقاصد والغايات ولا يلزم بالضرورة أن تكون وحدة فى الشرائع أو الوسائل. ومما يدل أيضاً على التأكيد على وحدة الدين بصرف النظر عن اختلاف الشرائع قوله تعالى فى سورة الشورى (آية ١٣) :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٨.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى ـ مجلد ١٢ ج ٢٣ ص ١٠٥ ـ دار الفكر.

وذلك بجانب قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1].

٢ ـ منشأ الاختلاف فى الأمة الواحدة :

وإذا كانت هذه الآيات التى تتحدث عن وحدة الأمة فى الدين الذى جاءت به الرسل جميعاً فإن هناك أسباباً ذكرها القرآن الكريم للاختلاف فى داخل هذه الأمة الواحدة يتجاوز الاختلاف فى الشرائع، وهناك مفاهيم أخرى للأمة تتسع أو تضيق على حسب الأحوال. فالراغب الأصفهانى مثلاً يقول فى تعريفه للأمة: «الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما : إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً »[2].

وقد كان الناس فى الأصل أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا بسبب الحسد والبغى بدءًا من قتل قابيل لأخيه هابيل، والأمر ذاته ينطبق على من بقى فى السفينة بعد الطوفان، إذ كانوا جميعاً على الحق والدين الصحيح ثم اختلفوا بعد ذلك، ويدل على هذا قول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[4] .

أى: بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين بعد أن حدث الاختلاف كما تنص على ذلك الآية الأولى.

ولكن هذا الاختلاف بين البشر الذى نشأ بسبب الانحراف عن الدين ليس أمراً

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٨.

(٢) نقلاً عن أحمد محمد شاكر فى تعليقه على مادة «أمة» فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) سورة يونس : آية ١٩.

(٤) سورة البقرة : آية ٢١٣.

خارجاً عن المشيئة الإلهية، وإنما هو أمر يتفق مع سنة الله فى خلقه، فالله سبحانه كان يستطيع ـ لو شاء ـ أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة إلى قيام الساعة، ولكنه سبحانه أراد أن يختبر خلقه ليميز الخبيث من الطيب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾(١) .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

فهو سبحانه يضل من يشاء ممن رأى فى سابق علمه أنه لو تُرك ونفسه لما فعل إلا الضلال والبهتان، ويهدى من يشاء ممن اطلع عليه فى سابق الأزل فرآه يميل إلى الخير ولو تُرك وشأنه لما فعل إلا الخير (٣).

وهناك آيات أخرى فى نفس المعنى فى **سورة هود (آية ١١٨)** وفى **سورة الشورى (آية ٨)**.

٣- الوحدة والخصائص المميزة :

وبعد هذا التمهيد الذى طال بعض الشىء نستطيع أن نتبين من خلاله فيما يخص الأمة الإسلامية بالمعنى التاريخى أن وحدة الأمة الإسلامية لا ينبغى أن يفهم منها نفى الخصائص المميزة لكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية داخل هذه الوحدة. فالوحدة هى الإطار العام تنفى التناقض ولكنها لا تنفى الاختلاف فيما هو خارج نطاق الأصول العامة.

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٨.

(٢) سورة النحل : آية ٩٣.

(٣) التفسير الواضح : ج ١٤ ص ٦٥، انظر أيضاً ج ١٢ ص ٦٠، ج ٣٥ ص ١١.

فوحدة الأسرة ليس معناها إذابة كل الفروق النفسية والعقلية بين أعضائها فكل ميسر لما خلق له. ووحدة المجتمع لا تعنى القضاء على اختلاف وجهات النظر فيما هو محل اجتهاد ولا تعنى طمس معالم ذاتية الأفراد واعتبارهم أدوات صماء أو نسخاً مكررة، فتلك وحدة لا يمكن أن تبنى مجتمعاً متماسكاً.

والشيء نفسه ينطبق على وحدة الأمة الإسلامية بصفة عامة، إذ ليس معنى هذه الوحدة طمس الخصائص التى تتميز بها شعوب الأمة الإسلامية وجعلها بلا لون؛ فقد خلق الله الناس شعوباً وقبائل لتتعارف وتتآلف لا لتذوب خصائصها كلية، وإلا لم يكن هناك داع فى الأساس لجعلهم شعوباً وقبائل.

وكمثال بسيط يعبر عن احترام الإسلام لما تتميز به كل طائفة أو قوم من خصائص ما دامت لا تتناقض مع مقررات الدين :

مما رواه الإمام البخارى عن عائشة رضى الله عنها: **«أنها زفَّت جارية يتيمة كانت فى حجرها لرجل من الأنصار، فدخل رسول الله ولم يسمع الغناء. فقال : يا عائشة ألا بعثت معها من يغنى فإن الأنصار قوم يحبون الغناء أو يحبون الغزل. فلو بعثتم معها من يقول :**

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
فلولا الذهب الأحمر ما حلَّت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم»[1].

فوحدة الأمة الإسلامية لا تصادم أية خصائص يتميز بها كل شعب من شعوب الأمة الإسلامية ما دامت فى الإطار المشروع، وما دام الجميع ملتزمين بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ويؤكد جمال الدين الأفغانى على هذه النقطة قائلاً:

« لا ألتمس بقولى هذا ـ فى الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية ـ أن يكون مالك الأمر فى الجَميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنى أرجو أن

(١) رواه البخارى ، وابن ماجه ، والحاكم فى المستدرك.

يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه» [1].

٤- الوحدة الكمية والوحدة النوعية :

والإسلام عندما يتحدث عن وحدة الأمة الإسلامية ويحث عليها ويدفع المؤمنين دفعاً إليها فإنه لا يركز بأية حال من الأحوال على مجرد الكثرة العددية. فالوحدة الكمية لا يمكن أن تكون هى الأساس المتين لبناء الأمة وقوتها.

فإذا انبنت مثل هذه الوحدة على أساس من الكثرة العددية فقط فسيكون البناء بناء هشّاً لا قيمة له ولا قوام، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه ـ بمصطلحات العصر ـ أنه وحدة شعارات خالية من المضمون.

وينطبق على مثل هذه الوحدة الهشة ـ التى تعد جسداً بلا روح ـ ما عبر عنه النبى ﷺ بغثاء السيل. فقد روى أبو دواد فى سننه والإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » [2].

وعندما نظر المسلمون فى غزوة حنين إلى كثرة عددهم وأصابهم شىء من الغرور وقالوا: لن نُغلب اليوم عن قلة؛ دارت عليهم الدائرة، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا

---

(١) د. محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٧٩ نقلاً عن مجموعة العروة الوثقى ص ١٩٣.

(٢) سنن ابى داود ، كتاب الملاحم ٥ / ج ٤ ص ٤٨٣ (طبعة اسطنبول للكتب الستة ، مجلد ١٠).

﴿رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (١).

ومن أجل ذلك يركز الإسلام على الوحدة النوعية؛ فالنوعية المؤمنة القليلة العدد تستطيع ـ بوحدتها وتماسكها وقوة إيمانها وثقتها بنصر الله ـ أن تتغلب على الكثرة الكاثرة الخاوية من الإيمان.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢).

فبناء وحدة الأمة لا بد أن يقوم على أسس راسخة حتى يكون بناء متيناً شامخاً ولا بد أن تكون عناصر هذا البناء قوية متينة.

ومن هنا نجد النبى ﷺ يؤكد على أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وأن « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** » (٣).

❖❖❖

(١) سورة التوبة : آية ٢٥.

(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٩.

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

obeikandl.com

القسم الثانى : الأبعاد المختلفة لوحدة الأمة الإسلامية

١ - البعد الدينى :

يمثل البعد الدينى أهم عناصر وحدة الأمة الإسلامية، فالدين هو الركيزة الأساسية التى تنبنى عليها بقية العناصر. فوحدة الأمة الإسلامية تمثل بناء متكاملاً له أساس ثابت فى الأرض هو الذى يحمل البناء كله، أو هى كالشجرة لها جذور ضاربة فى الأرض وبدونها لا يكون للشجرة كيان ولا حتى وجود، ومن هذه الجذور يمتد الساق والفروع والأغصان.

ويتمثل البعد الدينى فى العقيدة الواحدة بإله واحد ونبى واحد وكتاب واحد وعبادة واحدة؛ فالجميع يتجهون فى صلاتهم فى مواعيد محددة إلى الله نحو قبلة واحدة أياً كانوا فى أى مكان من العالم، ويجمع بينهم الصيام فى شهر معين، ويجمع الحج بينهم من كل الأجناس والأقطار طائفين حول كعبة واحدة فى حرم الله الآمن تنجذب إليها أفئدتهم من كل فج عميق :

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾[١].

وهذا التجمع الكبير فى الحج يعد رمزاً حياً لوحدة الأمة الإسلامية كلها، فهؤلاء ممثلوها من كل مكان يجمعهم هدف واحد ويربط بين قلوبهم رباط واحد يجعل منهم جميعاً إخوة متحابين متآلفين بأمر الله.

ويعبر القرآن الكريم عن هذا البعد الدينى بقوله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾[٢].

---

(١) سورة الحج : آية ٢٨.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

وهذه الوحدة الروحية من شأنها أن تقضى على كل ما يعكر صفو وحدة الأمة أو يعمل على تقطيع أوصالها؛ فما دام الرب واحدًا والدين واحداً والقرآن واحداً فلا مجال للتناقض فى أمور الدين.

والاعتصام بحبل الله ليس مجرد شعار يرفعه المسلمون وإنما له مقتضيات لا يتحقق بدونها ولا يقع عند الله موقع القبول إلا إذا تحققت وقام المعتصمون بتبعاتها على الوجه الذى رسمه الله فى كتابه طريقاً لكمال الإنسانية ورقيها، فهو يقضى بتنحية الشهوات والأهواء التى تثيرها العصبيات القبلية والجنسية والمذهبية، ويقضى بالنظر السريع فى تنقية العقائد والعبادات وسائر المشروعات الإلهية مما يشوبها ويكدر صفوها من صور الشرك والابتداع الذى هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا بتعددية الإسلام ويزعموا أن الإسلام ليس ديناً واحداً وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب[1] :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾[2].

٢- البعد الإنسانى :

ويتضح البعد الإنسانى لوحدة الأمة الإسلامية جلياً فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فالله سبحانه وتعالى يلفت نظرنا إلى وحدة الأصل الإنسانى. فالناس جميعاً قد خلقهم الله من نفس واحدة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[3].

ورسول الله ﷺ يؤكد هذا المعنى أيضاً فى قوله:

«يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على

---

(١) من توجيهات الإسلام للشيخ محمود شلتوت ص ٥١٢ مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر ١٩٥٩م.

(٢) سورة الكهف : آية ٥.

(٣) سورة النساء : آية ١.

أعجمى، ولا لعجمى علّى عربى، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى» [1].

والإسلام لا يفصل هذا البعد الإنسانى عن البعد الدينى الذى أشرنا إليه كما كانت تفعل ـ وما تزال ـ بعض الأيديولوچيات والفلسفات فى القديم والحديث التى تصل بالإنسان إلى حد التأليه وتجعله صاحب السلطان الأوحد فى هذا الكون.

ويبين لنا القرآن الكريم أن الإنسان الذى ينكر أصله أو يجحد خالقه هو إنسان يعمل ضد طبيعته وفطرته التى فطره الله عليها، فالله سبحانه قد أخذ عليه ميثاقاً لا يجوز له أن يتجاهله أو يغفل عنه لأنه مركوز فى أصل فطرته. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾[2].

ومن بين القلائل من فلاسفة الغرب الذين أكدوا هذا المعنى كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى قال : « والحق أنه لا ينبغى أن نعجب من أن الله حين خلقنى غرس فىَّ هذه الفكرة (أى: فكرة وجود الله) لكى تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته » [3].

وهذا الارتباط الوثيق بين كل من البعد الدينى والبعد الإنسانى فى وحدة الأمة الإسلامية له دلالة مهمة، إذ يعنى أن هذه الأمة التى أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس من شأنها أن تكون عنصر أمان واستقرار فى هذا العالم؛ فهى أمة

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤١١ ـ المكتب الإسلامى للطباعة والنشر، بيروت، وقد رواه الترمذى أيضاً فى سننه ج ٤ ص ٣٨٩ (مجلد ١٤ من طبعة اسطنبول للكتب الستة).

(٢) سورة الأعراف : آية ١٧٢.

(٣) التأملات لديكارت ترجمة د. عثمان أمين ص ١٥٥ ، القاهرة ١٩٥١م.

ترتبط بخالقها بعلاقة العبودية له سبحانه وترتبط بغيرها من بنى البشر بعلاقة الإنسانية التى لا تنسى عبوديتها لخالق الكون كله.

وهذه الصلة الوثيقة بالله إذا استقامت فإنها كفيلة بتصحيح مسار الأمة الإسلامية فى هذا الوجود؛ وبذلك تتحقق خيريتها . . إنها أمة تسع الإنسان أينما كان وأنى كان وتشمل برعايتها وأمنها كل من يعيش على أرضها . . أمة يرى خليفتها عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخاً يهودياً يتكفف الناس فى شوارع المدينة فيفرض له من بيت مال المسلمين ما يكفيه ذل السؤال . . أمة يفرض عليها دينها حقاً للجار غير المسلم على جاره المسلم، أمة يؤكد كتابها الكريم المعنى الإنسانى الشامل الذى يؤكد كرامة الإنسان وحُرْمته فى قوله تعالى :

﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (١).

٣ـ البعد الاجتماعى :

إذا كانت الأمة الإسلامية ترتبط فيما بينها بروابط العقيدة والإنسانية فإن محصلة هذين البعدين هى الأخوة التى هى أقوى من أخوة النسب. ومن هنا كان قول القرآن الكريم : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ (٢).

وعندما أراد النبى ﷺ أن يؤسس قواعد المجتمع الإسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فتآلفت قلوبهم بفضل الله. وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التآلف فقال:

﴿ **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ (٣).

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٢) سورة الحجرات : آية ١٠.

(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

وهذه الأخوة لها حقها فهى تتضمن بعداً عاطفياً يتمثل فى المشاركة الوجدانية. فكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية يشعر بآلام وآمال أمته لأنه جزء منها يحس بإحساسها ويسعد لسعادتها ويتألم لألمها.

ومن هنا كان قول النبى ﷺ :

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (١).

ولكن مجرد المشاركة الوجدانية ـ مع أهميتها ـ لا تكفى. ولا بد أن يترجم هذا الشعور الداخلى إلى عمل فعال يكون من شأنه النهوض بالأمة وبأفرادها.

ومن هنا كان مبدأ التكافل فى الإسلام بمثابة ترجمة عملية لذلك الشعور الباطنى لدى المسلم . وقد جعل الإسلام هذا المبدأ عبادة مفروضة يتعبد بها المسلم ويتقرب بها إلى ربه وهى فريضة الزكاة.

فالزكاة ـ إذن ـ ليست مجرد تبرع يجود به المسلم أو لا يجود وإنما هى حق المال، وهو حق إلزامى واجب الأداء من طيبات ما كسبنا، وهو حق لا يجوز التهاون فيه بأى حال من الأحوال. فالله سبحانه قد استخلف الإنسان فى المال الذى هو مال الله وأمره بالإنفاق منه. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (٢).

ومن هنا نفهم لماذا حارب أبو بكر رضى الله عنه مانعى الزكاة لأنها ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامى فضلاً عن أنها أحد أركان الإسلام الأساسية. فالأمة الإسلامية أمة متكافلة ولا تتم وحدتها بدون هذا التكافل، ولا يتم إيمان المسلم بدونه. وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد (راجع فيض القدير للمناوى ج ٥ ص ٥١٤ ـ دار المعرفة ـ بيروت).

(٢) سورة الحديد : آية ٧.

« ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » [1].

وهذا أمر لا ينطبق فقط على محيط التجمعات السكنية الصغيرة أو القرى أو المدن أو محيط كل دولة إسلامية على حدة، وإنما هى مبادئ مقررة تلتزم بها الأمة الإسلامية كلها حتى لا يكون هناك فقير أو محتاج على مستوى الأمة الإسلامية. فهموم هذه الأمة ينبغى أن تشغل بال كل مسلم وكل حاكم فى العالم الإسلامى. وقد آن الأوان ليخرج المسلمون من دائرة المشاركة الوجدانية السلبية إلى المشاركة الإيجابية المؤثرة وذلك بوضع الخطط المفصلة لإقامة بنيان التكافل بين أبناء الأمة الإسلامية. وقد آن الأوان للأمم الإسلامية أن تنصهر فى بوتقة الوحدة الحقيقية للأمة الإسلامية بتحقيق مبدأ التكافل والخروج من سجن الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التى أرادها الله أن تكون خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتقيم التعاون فيما بينها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

٤- البعد الجغرافى :

لقد جعل الله للأمة الإسلامية من وضعها الجغرافى الذى تتميز به فى هذا العالم وحدة طبيعية جامعة تمتد فى رقعة مترامية الأطراف متلاحمة الأجزاء. وقد صور العالم الجليل الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز هذه الوحدة الجغرافية تصويراً طريفاً معبراً نقتبسه هنا لأهميته فى إعطاء صورة واضحة المعالم لهذا البعد الجغرافى. يقول رحمه الله:

« إنها صورة جمل ضخم قد برك على الأرض بمؤخرته ولكنه أخذ يهم بالنهوض فنصب ساقيه الأماميتين ورفع رأسه ومد عنقه، وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل وتدلى من عنقه حبل ثان، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل

---

(١) رواه الطبرانى والبزار وإسناده حسن (راجع : الترغيب والترهيب للإمام الحافظ المنذرى ج ٣ ص ٣٥٨).

ثالث كأنه المقود فى يد الراكب. أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الأفريقية، أعنى كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغندة، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال، وأما عنقه ورأسه الممتدان فى قلب القارة الآسيوية فهى بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن، وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادى أمام الجزر اليابانية، وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادى والهندى، وهناك تؤلف مجموعة الجزر الإندونيسية. وأما المقود الذى يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوربية تبتدئ من الأقطار التركية وتسير فى اتجاه شمالى غربى حتى تصل إلى بحر البلطيق ».

وهذه الوحدة الجغرافية التى تتضح لنا من خلال هذه الصورة الملموسة من شأنها أن تمحو بين أقطار العالم الإسلامى تلك الحواجز الإقليمية المصطنعة فى شئون الاقتصاد والإنتاج. ومن شأن الوحدة الجغرافية أيضاً أن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعاً ينشر فيها الرخاء ويحقق لها الاكتفاء الذاتى والاستغناء عما سواها »[1].

ولا ينبغى أن يفهم من هذا التصوير للبعد الجغرافى محدودية الإسلام وانحصاره فى تلك البقاع. فالغرض كان فقط إعطاء صورة تقريبية لتلاحم مناطق العالم الإسلامى فى عالمنا المعاصر. ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد على عالمية الرسالة الإسلامية ومسئولية المسلمين فى توصيلها إلى كل مكان فى العالم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن. فهذا أمر يعد من البديهيات الإسلامية.

---

(١) فى الدين والأخلاق والقومية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٤٨ وما بعدها ، القاهرة ١٩٦٧م.

٥- البعد الحضارى :

الإسلام ليس دين طقوس تعبدية جامدة، إنه دين للحياة بكل أبعادها والأمة الإسلامية أمة أراد الله لها أن تكون صاحبة رسالة دينية وحضارية فى هذا العالم، ومن هنا كان وصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

وقد رسم القرآن الكريم للإنسان الإطار العام فى كل أموره الدينية والدنيوية واستخلف الله الإنسان فى الأرض وكلفه بعمارتها وصنع الحضارة فيها، ووعد المؤمنين العاملين بالتمكين لهم فى الأرض وكتب لهم العزة والنصر. وتحقيق ذلك كله أمر منوط بالإنسان وبتأييد من الله.

وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك كله وعملوا على تحقيقه، وقد تحقق لهم بالفعل ما أرادوا وما أراده الله منهم. وبذلك أقاموا صرحاً شامخاً لحضارة كانت من أطول الحضارات عمراً فى التاريخ. وقد اشترك علماء الأمة الإسلامية من كل جنس ولون فى إقامة هذا الصرح الحضارى بدافع من الإسلام الذى رفع من شأن العلم والعلماء واعتبر مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء، وجعل العلماء أخشى الناس لله.

وسارت جهود علماء المسلمين فى مجالات العلوم الدينية والدنيوية جنباً إلى جنب فى تكامل رائع، فقد أدركوا أن الحضارة تعنى تقدماً مادياً وروحياً وأخلاقياً، وبذلك قدموا للإنسانية خدمة كبرى فى الوقت الذى كان فيه العالم غير الإسلامى ما يزال يعيش فى جهالة جهلاء. وترك لنا الأسلاف تراثاً ضخماً يعد أغنى تراث فى العالم يعبر عن وحدة جهود علماء الأمة الإسلامية بصورة رائعة. ويشترك المسلمون اليوم فى كل مكان فى العالم الإسلامى فى الاعتزاز بهذا التراث.

وقد آن الأوان للأمة الإسلامية أن تتوحد جهودها مرة أخرى فى سبيل النهوض بالأمة والارتقاء بها حضارياً بما يؤكد شخصيتها المتميزة ويحافظ على ذاتيتها مسترشدين فى ذلك بتعاليم الإسلام الشاملة وبالجوانب الإيجابية المشرقة فى تراثنا. فلا يليق بالأمة الإسلامية أن تظل فى عالمنا المعاصر قابعة فى مقاعد

المتفرجين الذين لا يشاركون فى صنع الحضارة، ويكتفون بدور المستهلك لما تنتجه الحضارة التى يصنعها غيرنا فى الوقت الذى لا تعرف البشرية فيه ديناً آخر غير الإسلام يشتمل على كل المقومات والأسس التى تحقق للبشرية أفضل المستويات الحضارية مادياً وروحياً وأخلاقياً.

والرسالة الدينية الحضارية المنوطة بالأمة الإسلامية لا يمكن تأديتها والقيام بحقها إلا إذا توحدت جهود الأمة الإسلامية دينياً وفكرياً وحضارياً ـ وواجبها يفرض عليها فى هذا الصدد أن تقدم للعالم هذه الرسالة الدينية الحضارية فى صورة أنموذج متحقق فى عالم الواقع. فليس بالأقوال تؤدى الرسالات الكبرى ولكن بترجمة الأقوال إلى برامج عمل. ومن هنا كان اللوم والمقت للمؤمنين الذين يقولون ما لايفعلون :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١).

٦- البعد المصيرى :

وإذا كانت الأمة الإسلامية ترتبط فيما بينها برباط دينى واحد وتجمعها وحدة جغرافية طبيعية ولها رسالة نورانية حضارية فى هذا الوجود فإن ذلك يعنى غايات واحدة وأهدافاً مشتركة ويعنى فى النهاية مصيراً واحداً.

ومن أجل حماية هذا المصير الواحد وصوناً للمبادئ السامية والمثل العليا التى تقوم بها ومن أجلها الأمة الإسلامية فلا بد من إعداد القوة اللازمة لدرء الأخطار التى تحيط بها سواء أكانت هذه الأخطار قائمة بالفعل أو محتملة الوقوع، أى: سواء أكانت منظورة أو غير منظورة، فالقوة فى كلا الحالين ضرورية.

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

(١) سورة الصف : الآيتان ٢ ، ٣.

﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1].

والهدف الذى من أجله يدعو القرآن الكريم إلى هذا الاستعداد الحربى بكل ما أوتينا من قوة لا يرمى إلى التخريب والتدمير أو الاستعباد والاستعمار أو سلب الآخرين أموالهم وأوطانهم وأمنهم، وإنما يرمى إلى دفع شر الأعداء وتخليص المستضعفين من أيدى الظالمين المعتدين وإفساح الطريق أمام دعوة الخير الذى يريده الله لعباده.

وقيام هذه القوة يعد من أقوى وسائل السلم الذى أمر الله به. ومن هنا كان التأكيد فى الآية على قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فهى قوة تحمى السلم والأمان والاستقرار.

ومثل هذه القوة لا تتأتى إلا بوحدة الأمة الإسلامية. فهذه الوحدة هى السد المنيع والحصن الحصين فى وجه كل الأطماع التى تستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وإثارة الفتن والخصومات بين أبنائها.

وعلى الأمة الإسلامية صاحبة المصير المشترك أن تعيد النظر فى قائمة الأولويات للقضايا والهموم التى تحيط بها فى عالمنا المعاصر فتشغل نفسها لا بالقضايا الهامشية بل بالقضايا المصيرية وعلى رأسها قضية التخلف التى تمثل الهم الأكبر للأمة الإسلامية اليوم. والتخلف الذى أعنيه يشمل المجالات الروحية والمادية والأخلاقية والعلمية والحضارية بصفة عامة. وتلك قضية مصيرية لا يجوز التهاون فيها أو التفريط فى معالجتها بما تستحقه من اهتمام وعناية.

المخاطر التى تهدد وحدة الأمة الإسلامية

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على أهم الأبعاد التى تشتمل عليها وحدة الأمة

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦٠.

الإسلامية لا بد لنا من التنبيه إلى المخاطر التى تهدد صرح هذه الوحدة. وقد حذر الإسلام من الوقوع فى شراكها. وتتلخص هذه المخاطر فى عنصرين أساسيين يمكن أن ترد إليهما جميع الأسباب الفرعية الأخرى التى تستهدف إضعاف الأمة الإسلامية وكسر شوكتها.

وأول هذه العناصر يتمثل فى الفرقة والتنازع والصراعات المدمرة التى تعد مدخلاً خطيراً لانهيار وحدة الأمة الإسلامية، سواء أكان هذا التنازع والتفرق فى أمور الدين أو السياسة والملك أو بسبب الفوارق الطبقية الصارخة أو بسبب الصراعات القبلية أو العرقية التى تحيى ما كان قائماً فى الجاهلية، وقد جاء التحذير الإلهى من ذلك حاسماً قاطعاً فى عبارة قصيرة تبدأ بالحث على التمسك بالوحدة وتحذر فى الوقت نفسه من التفرق، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ (١) وفى آية أخرى يأتى التنبيه إلى نتيجة التفرق والتنازع وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ (٢). وهكذا تؤدى الفرقة والتنازع والتناحر إلى الفشل الذى تكون نتيجته النهائية هى ذهاب قوة المسلمين وضياع عزتهم ومنعتهم؛ وبذلك يكونون لقمة سائغة فى يد أعدائهم تداعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

أما العنصر الآخر الذى يحذر الإسلام منه فيتمثل فى موالاة الأعداء. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال: آية ٤٦.

(٣) سورة آل عمران: اية ١١٨.

وختام الآية أمر فى غاية الأهمية لمن يتأمل. فالله قد وضح لنا الطريق وكشف لنا عن مخاطره وعثراته وعلينا أن نتدبر أمرنا بعقولنا التى منحها الله لنا لنميز بها الخبيث من الطيب ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[1].

ولا يخفى على أحد أن هناك كثيراً من الممالك الإسلامية فى القديم والحديث قد ضاعت بسبب موالاة الأعداء والركون إليهم والوثوق بهم والاستعانة بهم على حرب المسلمين بعضهم بعضاً، ولم يكن ذلك السلوك إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

❖❖❖

(١) سورة الممتحنة : آية ١.

obeikandl.com

خاتمة : واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل

إن الواقع الذى تعيشه الأمة الإسلامية اليوم يعد واقعاً مؤلماً كما يجب أن نعترف بذلك جميعاً، وهو واقع يسير فى اتجاه مضاد لكل مثاليات وحدة الأمة الإسلامية. فالنزاعات القائمة اليوم بين أبناء الأمة الإسلامية أكثر منها فى أى مكان آخر فى العالم، ومؤسسات العمل المشترك فى العالم الإسلامى ليست أكثر من واجهة تحمل شعارات طنانة لا تعنى شيئاً، وأمور المسلمين المصيرية يقررها غيرهم. وأقرب مثل على ذلك كان الاتفاق الذى تم بشأن أفغانستان منذ بضعة أشهر فقد تم توقيع هذا الاتفاق لا من جانب أصحاب الشأن وأصحاب القضية وهم المسلمون ولكن من جانب الدولتين العظميين.

وهذا الواقع المؤلم يدفع إلى طرح تساؤلات عديدة :

هل يجهل أبناء الأمة الإسلامية فى عالم اليوم الأبعاد الحقيقية لوحدة الأمة الإسلامية ومن هنا يعملون فى اتجاه معاكس لها أم أنهم يدركون تماماً كل ما تعنيه هذه المقومات بالنسبة لحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ومع ذلك فهم لا يصنعون شيئاً ؟

إنه إذا كانت الأولى فتلك مصيبة وإن كانت الثانية فإن المصيبة أعظم.

ما لنا نرى هذا البون الشاسع بين النموذج والواقع ؟

وما لنا نرى الأمة الإسلامية قد تفرقت السبل بأبنائها ؟

أين الخلل ؟ هل هو فى المشروع الحضارى الإسلامى أم هو فى الواقع المحير والمشحون بالتناقضات الحادة والذى يعيشه أبناء الأمة الإسلامية؟

أم أن الخلل فى الفهم السقيم والمعوج لقيم وتعاليم الإسلام؟

ما سبب هذا التبلد الذى أصاب الأمة الإسلامية فى عالمنا المعاصر؟

أين ذلك كله من تلك الأمة التى وصفها القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس ؟

لسنا نريد الدخول فى تفاصيل ذلك كله الآن؛ لأن موضوعنا ينصب فقط على توضيح مفهوم وحدة الأمة الإسلامية، ولعل موضوعات هذا الملتقى المبارك تغطى هذه الجوانب كلها أو معظمها، ولكننا نستطيع أن نقول باختصار ـ كما قال الراحل مالك بن نبى أيضاً ـ : « إن التخلف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية اليوم يعد عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين ».

ومن ناحية أخرى فإن صلاح حال الأمة الإسلامية لن يتم إلا بإرادة أبنائها ولن ينزل علينا من السماء. فإذا صحت إرادة الأمة وصدقت العزائم وخلصت النيات فلا شك أن الله سبحانه وتعالى سيكون مع هذه الأمة بالتأييد والنصر. وهذا قانون قرآنى ثابت تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

وعلى الرغم من كل السحب الكثيفة السوداء التى تغطى سماء الأمة الإسلامية فنحن لسنا يائسين فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

ولا زلنا نأمل فى تيقظ وعى الأمة وصحوة ضميرها وتجديد شباب عقيدتها ونقاء فكرها حتى تأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم فى عصر التكتلات الدولية.

فلا يليق بكرامة هذه الأمة أن تعتمد فى غذائها بنسبة سبعين فى المائة على غيرها من دول العالم، ومن المعلوم أن من لا يملك غذاءه لا يملك قراره. لا زلنا نأمل أن تعود هذه الأمة صاحبة قرارها ومقررة مصيرها، وأن تسهم إسهاماً حقيقياً فى تقرير مصير هذا العالم.

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

لا زلنا نأمل في غد مشرق للأمة الإسلامية، تتوحد فيه جهودها وتتفق ـ على الأقل ـ على قضاياها المصيرية. ونرجو أن تتحول هذه الآمال ـ عن قريب ـ إلى برامج عمل لمصلحة هذه الأمة حتى تحقق ما أراده الله لها: أن تكون خير أمة أخرجت للناس قولاً وفعلاً.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

❖❖❖

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

القرآن الكريم
وخصائص المجتمع الإسلامى

ويتضمن هذا الفصل :

تحديد المفاهيم :

١ ـ وحدة العقيدة والمبادئ. ٢- الأخوة.

٣- المساواة. ٤- التكافل.

٥- التعاون والتراحم والمحبة.

٦- الشورى. ٧- العزة والمنعة.

٨- التسامح والروح الإنسانية الشاملة.

خاتمة .

obeikandi.com

obeikandl.com

تحـديد المفـاهيم :

قبل أن نبـدأ حديثنا حول هذا الموضوع نود أولاً أن نحـدد بعض المفاهيم التى وردت فى عنوان هذه الندوة [1]. وقد لا يرى الكثيرون حـاجة إلى ذلك لوضوح هذه المفاهيم فـى الأذهان، ولكن من باب التذكرة فـقط لا من باب افتـراض عدم العلم نشير إلى ما نود التأكيد عليه من هذه المفاهيم. ونقتصر فى هذا التحديد على مجرد الإشارة التى تغنى عن التفصيلات الكثيرة.

أما القرآن الكريم فغنى عن البيان ما يعنيه بالنسبة للمسلمين. ولكن الذى نود أن نبرزه فى هذا الصـدد هو أن هذا القرآن الذى هو وحى الله هو كتـاب للإنسان ومن أجل الإنسان. « فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان ». وقد تكررت كلمـة « الإنسان » فى القرآن ثـلاثاً وستين مرة، وجـاء الحديث بلفظ «بنى آدم» ست مرات وبلفظ « الناس » مائتين وأربعين مرة.

وإذا تدبرنا أول ما نزل من الوحى القرآنى على رسول الله ﷺ فسيتضح لنا التركيـز على العناية بشأن الإنسان بصـفة خاصة. ويتجلى ذلـك بوضوح من ذكر لفظ « الإنسان » مرتين فى الآيات الخمس الأولى من الوحى[2] :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ [3].

ولا غرابة فى ذلك ، فالإنسان قد جعله الله خليفة فى الأرض، وكرمه وفضله

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة فى ندوة بمقـر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية حـول « القرآن الكريم وخصائص المجتمع الإسلامى » فى ١٦ رمضان ١٤٠٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٩٨٨م.

(٢) الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ٦١ مكتبة وهبة ١٩٧٧م.

(٣) سورة العلق : الآيات ١ ـ ٥ .

على سائر المخلوقات، وميزه بالعقل والإدراك، وحمَّله أمانة عمارة الأرض وصنع الحضارة فيها. وقد تضمن القرآن دستوراً ينظم للإنسان شئون حياته وأمور معاشه وعلاقاته بنفسه وبغيره من أناس وحيوان ونبات وجماد.

هذا عن القرآن الكريم، أما خصائص المجتمع الإسلامى فإن المقصود بالخصائص تلك الصفات التى لا تنفك عن الشىء وتميزه عن غيره. ووصف المجتمع بأنه إسلامى يعنى أنه مطبوع بالطابع الإسلامى خاضع لتعاليمه ملتزم بمبادئه وتشريعاته. أما المجتمع فمعناه مجموعة أفراد تربطهم علاقات منظمة وخدمات متبادلة وتسودهم روح عامة وتقاليد مشتركة يخضعون لها جميعاً. فللمجتمع سلطان على أفراده كالأسرة والأمة.

فالمجتمع ـ إذن ـ ليس مجرد اجتماع أفراد فى مكان وزمان معينين، ولكنه يعنى تفاعل الأفراد فى مجتمع من المجتمعات تفاعلاً يراعى فيه كل مكونات هذا المجتمع وحركته فى الزمان وآماله وتطلعاته فى المستقبل.

فالتركيب الاجتماعى ليس تركيباً حسابياً ولكنه أشبه بالتركيب الكيماوى الذى تتفاعل فيه العناصر التى شكلته.

وهناك فيما يتعلق بتحديد الصلة بين الفرد والمجتمع وجهات نظر فلسفية متناقضة جعلت من الفرد والمجتمع خصمين متصارعين. فالفلسفات والنظم الجماعية تقرر الغلبة للمجتمع وتتجه هذه النظم إلى إنكار ذاتية الفرد وإلغاء شخصية الإنسان مقابل المجتمع الذى ينظم كل شىء.

وأما الفلسفات والنظم الفردية فإنها على العكس من ذلك تقرر أن الغلبة للفرد ولذلك ترفض تقييد حريته فى اختيار طريقه فى حياته الخاصة أو العامة.

ولكن الإسلام لا يقر هذا الصراع بين الفرد والمجتمع. فالنزعة الفردية والنزعة الاجتماعية أصيلتان فى فطرة الإنسان. وإذا كان الإسلام قد قرر المسئولية الفردية فى صراحة ووضوح فإنه قد قرر فى الوقت نفسه على الفرد واجبات مخصوصة

نحو الجماعة ودمجه فى مسئولية مشتركة عن المجتمع، كما أشرك المجتمع فى مسئوليته عن الفرد [١].

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تؤكد على المسئولية الفردية. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ **بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ** ﴾[٢]، ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إلا مَا سَعَىٰ** ﴾[٣].

كما أن هناك آيات أخرى وأحاديث نبوية تحض على التعاون والعمل المشترك وتبرز المسئولية المشتركة، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ **وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③** ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[٥] .

وأما عن المسئولية المشتركة فإن النبى ﷺ يصورها لنا أبلغ تصوير فى قوله :

« **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**»[٦].

وقد قضت الحكمة الإلهية من خلق الإنسان تحقيق الاجتماع الإنسانى على

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم العثمان ص ٢٧٧ وما بعدها. بيروت ١٩٧٢م. وراجع : مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى ، من ترجمتنا ص ١٤٣ ـ ١٥٤. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م.

(٢) سورة القيامة : آية ١٤.

(٣) سورة النجم : آية ٣٩.

(٤) سورة العصر.

(٥) سورة المائدة : آية ٢.

(٦) رواه البخارى ج١ ص ٦٩ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ٤).

أساس من القيم الإنسانية. فالقرآن الكريم عندما يتحدث عن خلق الإنسان وخلق ما يعينه على المعيشة فى الحياة الدنيا من حيوان ونبات يتحدث عن «الزوجية» فى الذكورة والأنوثة فى الإنسان والحيوان والنبات فيجعل لهذه الأنواع الثلاثة هدفاً مشتركاً يتمثل فى الكثرة والزيادة العددية فيها، بينما يضيف فى جانب الإنسان وحده إلى هذا الهدف المشترك هدفاً آخر خاصاً به هو هدف قيام المجتمع البشرى وتحقيق أغراضه [1]. فيقول فى شأن هذا الهدف الخاص بالإنسان :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وهكذا نجد أن القرآن ينظر إلى قيام المجتمع الإنسانى على أساس من القيم الإنسانية الرفيعة التى عبر عنها فى الآية الكريمة بالسكن أى : الاستقرار والمودة والرحمة وهى تلك الروابط الإنسانية التى تبنى مجتمع الحضارة الإنسانية.

تلك نظرة القرآن إلى أساس بناء المجتمع الإنسانى السليم. وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل.

وتأسيساً على ذلك يمكننا أن نقول إن المجتمع الإسلامي يقوم على عدة عناصر رئيسية تميزه عن غيره من المجتمعات ومن أهمها ما يلى :

١- وحدة العقيدة والمبادئ :

يقوم المجتمع الإسلامى على أساس الإيمان بالله الواحد الذى خلق هذا الكون بما فيه ومن فيه والذى أرسل الرسل الذين كان خاتمهم محمد ﷺ، وعلى أساس من هذه العقيدة تتفرع مبادئ ومفاهيم وأفكار وعواطف وتتولد عنها نتائج مهمة كان لها ولا يزال أثرها البالغ فى مجرى تاريخ الشعوب. وتتجلى هذه

---

(١) القرآن والمجتمع للدكتور محمد البهى ص ٣ وما بعدها، مكتبة وهبة ١٩٧٦م.

(٢) سورة الروم : آية ٢١.

العقيدة وتلك المبادئ في العديد من المظاهر الحياتية للمجتمع الإسلامي أبسطها السلام والتحية.

وهذا الإيمان قوة غامرة وطاقة حيارة تفعل فعلها في النفوس، وإذا كان الإيمان صادقاً خالصاً مخلصاً انقلب إلى عمل صالح، ومن هنا كان التأكيد في القرآن الكريم على ارتباط الإيمان بالعمل الصالح حيث ورد ذلك في سبع وخمسين آية، فالمجتمع الإسلامي مجتمع المؤمنين العاملين لا مجتمع المتبطلين العاطلين.

والإيمان ـ كما ورد في الأثر ـ ليس بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأماني وقالوا: نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل [1].

ومن هنا نستطيع أن نقول إن المجتمع الإسلامي يقوم على أساس فكرى واحد. فالمسلمون جميعاً لهم مفاهيم متماثلة وإن اختلفوا فى مستوى فهمها [2]. ويقوم البناء الأخلاقى على هذا الأساس العقدى؛ فقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » [3].

ويشكل الإيمان القاعدة الأساسية للبناء الأخلاقى كله. وهذا ما يؤخذ من قول النبى ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**» [4].

ومن هنا يتبين أن المجتمع الإسلامى لا يقوم على أساس عرقى أو طبقى وإنما يبنى على عقيدة معينة وضابط خلقى بعينه.

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس على أنه حديث شريف. وقد جاء فى (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للعلامة المناوى ـ ج ٥ ص ٣٥٦ ـ أنه حديث ضعيف وقال : « وقد روى معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو الصحيح ». وسواء أكان حديثاً أم قولاً مأثوراً عن الحسن فإن المعنى المقصود صحيح ولا غبار عليه.

(٢) محمد المبارك : المجتمع الإسلامى المعاصر ص ٢٨ وما بعدها، دار الفكر ـ بيروت ١٩٧١ م.

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

(٤) رواه الإمام مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة كما رواه البخارى والترمذى مختصراً (فيض القدير ج ٣ ص ١٨٥ ، ١٨٦).

٢- الأخوة :

فالمؤمنون تربط بينهم رابطة الأخوة فى الله وفى العقيدة قبل أن تكون أخوة نسب. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾(١) وعندما أراد النبى ﷺ أن يبنى المجتمع الإسلامى فى المدينة بعد الهجرة آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فتآلفت قلوبهم بفضل الله. وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التآلف فقال : ﴿ **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾(٢)، وفى آية أخرى : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (٣)، وكل من يلتزم بأمر الله يستطيع أن يدخل فى دائرة هذه الأخوة : ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ**﴾ (٤).

وكل من آمن بالله رباً ومالكاً ورضى بما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق منهجاً عملياً لحياته فقد أصبح من أجزاء هذا المجتمع وجزءاً من أفراده. وهكذا فإن المجتمع الإسلامى مجتمع مفتوح لكل من يؤمن بعقيدة واحدة (٥).

فالمجتمع الإسلامى ـ إذن ـ مجتمع الأخوة وتلك خاصية ملازمة له فى كل زمان ومكان.

٣- المساواة :

وهذه الأخوة تعنى الندية . . تعنى المساواة فى الاعتبار البشرى :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ**

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٠.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٣.

(٤) سورة التوبة : آية ١١.

(٥) معالم الثقافة الإسلامية : ص ٢٨٠.

﴿مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾[1].

وقد أصَّل القرآن الكريم فى هذه الآية « المساواة » فى الإنسانية على مبدأ أن الكثرة التى خلقت من البشر مردها جميعها فى الخلق إلى « نفس واحدة » فهم حتماً متساوون فى خصائص الإنسانية. ولا يغير من المساواة فى القيمة البشرية لجميع الأفراد ما جَدَّ فى حياة الناس من غنى أو فقر وضعف أو قوة وعلم أو جهل إلى غير ذلك من فروق. فالاعتبار الوحيد فى التمايز والتفاضل هو التقوى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

وإذا كانت التقوى هى معيار التفاضل فلا يجوز لأحد أن يسخر من غيره فلعله يكون عند الله خيراً منه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[3].

٤- التكافل :

يترتب على الأخوة خاصية أخرى ترتبط بها ارتباطاً تاماً، وتلك الخاصية هى التكافل. فالإسلام يجعل الرعاية الاجتماعية من أنواع العبادة التى يتقرب بها الإنسان إلى الله. وأداؤها مترتب على الإيمان بالله وبالوحى.. يقول الله تعالى :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) سورة النساء : آية ١.

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣ . انظر أيضاً : د. البهى (ضبقية المجتمع ص ٣٩ وما بعدها).

(٣) سورة الحجرات : آية ١١.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٦٥.

والعبادة التى فرضها الإسلام وجعل غايتها الرعاية الاجتماعية فى المجتمع هى الزكاة. وأداء هذه الزكاة يكفل الرعاية الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى ضماناً لإبعاد شبح الحاجة من المجتمع.

وليست الزكاة تبرعاً مرهوناً بمشيئة الإنسان، بل هى حق المال، وهو حق واجب الأداء؛ فالمال ملكيته خاصة ولكن منفعته عامة وله وظيفة اجتماعية، وهو مال الله الذى استخلف الإنسان فيه، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(١).

والزكاة عماد التكافل فى المجتمع الإسلامى، ويهدف نظام الزكاة إلى الوقاية من مذلة حاجة الأكل والشرب والتمكين من تحقيق الاعتبار البشرى للإنسان وحماية القيم العليا فى المجتمع من التدهور أو اللامبالاة بها.

ويتضح ذلك من التأمل فى تحديد مصارف الزكاة الواجبة على نحو ما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢).

٥- التعاون والتراحم والمحبة :

وفى ذلك آيات عديدة فى القرآن الكريم وأحاديث كثيرة فى السنة النبوية. فالله تعالى يقول: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾(٣).

---

(١) سورة الحديد : آية ٧.

(٢) سورة التوبة : آية ٦٠.

(٣) سورة المائدة : آية ٢.

والرسول ﷺ يقول : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** ».

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[1] ، ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[2] .

ويقول الرسول ﷺ : «**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[3] .

ولم تكن هذه التعاليم الإسلامية مجرد شعارات لا مجال لها فى التطبيق، أو مثاليات لا مكان لها إلا فى رءوس أصحابها. فقد تجسدت هذه القيم الإسلامية فى عالم الواقع، وكانت بالفعل هى التى تحكم علاقات المسلمين فى المجتمع الإسلامى، ولا تزال هى السبيل القويم لنهضة المجتمعات الإسلامية فى كل زمان ومكان.

٦- من الصفات الملازمة للمجتمعات الإسلامية خاصية الشورى :

وقد جاء الأمر بها فى القرآن الكريم صريحاً واضحاً لا لبس فيه : ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[4]، وقد كان النبى ﷺ يستشير أصحابه فى العديد من الأمور المهمة فى السلم وفى الحرب. وكان ينزل على رأى أصحابه حتى وإن كان غير مقتنع بصواب رأيهم كما حدث فى الخروج إلى غزوة أحد. وكان فى كل ذلك معلماً لأمته مبيناً لها طريق صلاحها وسبيل خلاصها.

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : «**ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال**

---

(١) سورة الفتح : آية ٢٩.

(٢) سورة الحشر : آية ٩

(٣) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩.

من رسول الله ﷺ ». وروى الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما : « **لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما** ».

وقد ورد عن الحسن رضى الله عنه قوله : « الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل. فالرجل الرجل من له رأى ومشورة، والرجل نصف الرجل من له رأى ولا مشورة له، والثالث من لا رأى له ولا مشورة » (١).

ومن ذلك يتضح أن الشورى بالنسبة لمجتمع المسلمين ليست مجرد رأى استشارى يؤخذ به أو لا يؤخذ وإنما هى ملزمة لولى الأمر بما يتفق ومصالح المسلمين. فقد وصف الله سبحانه المؤمنين بعدة أوصاف من بينها التزامهم بالشورى وقرن ذلك بإقامة الصلاة والإنفاق مما آتاهم الله من فضله وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢).

٧- من خصائص المجتمع الإسلامى أنه مجتمع القوة والعزة والمنعة:

فالمجتمع الإسلامى بما يمثله من قيم إيمانية وأخلاقية وإنسانية فى حاجة إلى قوة تحميه من أعداء الإيمان وأعداء الأخلاق وأعداء الإنسانية، ومن هنا كان الأمر القرآنى باتخاذ الأسباب لبناء قوة تحمى كل هذه القيم وترهب العدو حتى لا يجرؤ على الاعتداء على المجتمع الإسلامى.

وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٣).

---

(١) راجع: الشيخ محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام ـ الجزء الثانى ص ١٨ ـ القاهرة ١٩٨٤م.

(٢) سورة الشورى : آية ٣٨.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٠.

وهذا من شأنه أن يرفع الروح المعنوية للأمة ويجعلها عزيزة الجانب. ومن هنا كتب الله العزة للمؤمنين، وهى عزة مرتبطة بالعزة التى كتبها لنفسه ولرسوله كما يقول القرآن الكريم : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فهى من الله يمنحها ويمن بها على من استجاب لندائه وسار على سنة رسوله، يبدلهم من بعد خوفهم أمناً ومن بعد ضعف قوة ومن بعد ذلة عزاً :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[2].

وإذا تم للمؤمنين هذا التمكين فى الأرض لا ينبغى لهم أن ينسوا أن ذلك من فضل الله وأنهم مطالبون بأن يؤدوا ضريبة هذا التمكين الإلهى كما قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3].

٨- التسامح والروح الإنسانية الشاملة :

ويتضح ذلك من العديد من الأمثلة : فالمشركون عندما كانوا مشتبكين فى قتال مع الرسول والمسلمين لم يمنع ذلك الرسول ﷺ من أن يوصى بأسراهم خيراً.

واليهود يعدون من أشد الحاقدين على الإسلام ولكن عمر رضى الله عنه حين يرى الشيخ اليهودى يتكفف الناس يفرض له من بيت مال المسلمين.

وتتجلى تلك الروح الإنسانية الشاملة فى قوله تعالى :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

---

(١) سورة المنافقون : آية ٨.

(٢) سورة القصص : الآيتان ٥ ، ٦.

(٣) سورة الحج : آية ٤١.

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١).

تلك كانت أهم الخصائص العامة التى يتميز بها المجتمع الإسلامى. ولم يكن هدفنا من هذا العرض فى هذه المحاضرة هو الاستقصاء أو التفصيل، وإنما أردنا فقط إبراز بعض الأمثلة، وإلا فهناك خصائص أخرى لا تقل أهمية ولا أولوية عن بعض الأمثلة التى ذكرناها. ومن ذلك - على سبيل المثال - ما تتميز به الأمة الإسلامية من الوسطية (٢)، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله. وكلها أمور تؤهلها لتكون خير أمة أخرجت للناس، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٣).

ويندرج تحت هذا الإطار العام الذى عرضناه حول موضوع خصائص المجتمع الإسلامى تفريعات كثيرة ومسائل جزئية عديدة تكفلت الشريعة الإسلامية ببيانها وتوضيحها من جميع جوانبها.

❖❖❖

(١) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٢) مصداقا لقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. سورة البقرة : آية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران : آية ١١٠.

خـــــاتمـة

وفى نهاية حديثنا عن خصائص المجتمع الإسلامى نود أن نشير فى هذا الصدد إلى نقطتين مهمتين :

أولاً : قد يقول قائل إن النظم الاجتماعية المعاصرة تعرف بعض هذه المبادئ أو كلها وبالتالى فما ميزة المجتمع الإسلامى عندما يأخذ بهذه المبادئ ؟

وللإجابة عن ذلك نقول : إنه لا يوجد نظام فى العالم يحرص على إقامة هذا التوازن وبناء المجتمع على أساس القيم الدينية والإنسانية غير المجتمع الإسلامى الذى شرع له الله ما شرع من مبادئ تحكم مسيرته وهو سبحانه أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

ومن ناحية أخرى فإن ما تشرعه النظم المختلفة من قوانين وتسنه من نظم لتنظيم أمور المجتمع وإقامة العدل بين الناس لا تهتم إلا بالأعمال الظاهرة وليس له علاقة بباطن الإنسان وتقوم على حراسته سلطة خارجية.

أما النظام الإسلامى فإنه ينبنى على العقيدة ويقوم على القيم الإنسانية المتفرعة من هذه العقيدة، ومن هنا فإن الدافع إلى تنفيذ أحكامها وتطبيق تعاليمها ينبع من داخل الإنسان وبرقابة باطنية من ضميره. فالالتزام من أعماق الذات لا من سوط القانون وسلطة الشرطة. فالتوجه حينئذ مجرد من كل غرض إلا وجه الله كما تعبر عن ذلك الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

ثانياً : أما النقطة الثانية فإنها تتعلق بالصلة بين النموذج والواقع. فقد يتساءل

---

(١) سورة الإنسان : آية ٩.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٢.

البعض ـ وبحق ـ: إذا كـان النظام الإسلامى فى إقامة المجـتمع بهذا السمـو وبهذه المثالية فما بالنا نرى المجتمع الإسلامى فى عصرنا الحاضر مجتمعاً متخلفاً يسير فى مؤخرة الركب ؟ ومـا بال تلك الفجوة الكبيرة بـين النموذج والواقع ؟ وإذا كانت مبادئ الإسلام فى تنظيم أمور المجتمع سليمة وكفيلة بضمان السعادة للبشر فما بال المسلمين فى حال لا يسر صديقاً ولا عدواً ؟

وتلك أسئلة لهـا ما يبررها ولكن يجب التـمييز بين الواقع المتـدنى للمسلمين وبين تعاليم الإسلام، فالتـخلف القائم فى المجتمع الإسلامى يعد عقوبة مـستحقة على المسلمين من الإسلام لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين.

ومن ناحية أخرى فإن صلاح حال المسلمين بأيديهم ولن ينزل عليهم ذلك من السماء فلا بد أن يغيروا أولاً من أحوالهم حتى يمكن أن يأتيهم مدد السماء :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

❖❖❖

(١) سورة الرعد : آية ١١.

obeikandl.com

الفصل الثالث

رؤية إسلامية
للمسئولية العالمية المعاصرة

ويتضمن هذا الفصل :

أولاً : مدخل : المسئولية المعاصرة.

ثانياً : المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الإسلام:

١ ـ المسئولية فى نظر الإسلام.

٢ـ الإنسان خليفة الله فى الأرض.

٣ـ الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة.ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة.

(ب) حرية الإنسان ومصيره.

(ج) الإيمان والمسئولية.

(د) دوائر المسئولية.

obeikandl.com

obeikandl.com

رؤية إسلامية للمسئولية العالمية المعاصرة [1] :

أولاً - مدخل : المسئولية المعاصرة :

إذا تأملنا فى عالمنا المحيط بنا فإننا نلاحظ الكثير من التغيرات الأساسية التى طرأت عليه؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى إننا نحن البشر قد تغيرنا، فبعد أن كانت كل أمة تعيش فى ظل حضارة واحدة خاصة بها ومحاطة بحمايتها ومستقرة تحت لوائها نجد أننا نعيش اليوم فى عالم متداخل الثقافات متشابك الحضارات.

وقد اهتزت القواعد القديمة للجماعات بصورة حادة وأصبح لزاماً على الجميع فى كل مكان فى عالم اليوم أن يوطنوا أنفسهم على التعايش مع أناس مختلفين فى حضارتهم وأديانهم اختلافاً عظيماً. فالجماعات التى كان ينظر إليها أيضاً فى السابق على أنها جماعات غريبة ، أو ما يزال ينظر إليها أيضًا حتى اليوم فى مناطق كثيرة من العالم على أنها جماعات غير منتمية أو حتى معادية - كما تؤكد ذلك الأحكام المسبقة التى ما تزال شائعة - لم يعد فى الإمكان رفض هذه الجماعات بصفة عامة، بل أصبح لزاماً على المرء أن يبذل جهده فى فهمها وتقبلها على الأقل بدرجة معينة. وقد أصبح فعل ذلك أمراً ضرورياً حتى يمكن تفادى الانهيار القاتل لسفينة هذا العالم.

والسؤال الذى يمكن أن يفرض نفسه فى هذا الصدد هو :

هل المطلوب - إذن - أن نكون فى مستوى «فوق الحضارة»- إذا صح هذا التعبير - أى: فى مستوى يرتفع فوق الحضارات الخاصة، أم أن المطلوب هو أن نزداد تأصلاً ورسوخاً فى حضارتنا الخاصة التى يمثل الدين نواتها فى كل الأحوال ؟

---

(١) أصل هذا البحث قدم باللغة الألمانية لملتقى الأديان فى سانت ميرجن - فرايبورج بألمانيا الغربية فى نوفمبر ١٩٨٦م وقامت بنشره فى نهاية عام ١٩٨٧م دار نشر هردر Herder الالمانية المعروفة تحت عنوان: "Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht" وذلك ضمن كتاب ضم بحوث الملتقى المذكور.

ألسنا سوف نتبين فى الحالة الأخيرة أيضاً أننا جميعاً فى نهاية المطاف نضرب بجذورنا فى ذات الأرض ويرتفع نمونا عالياً تحت سقف سماء واحدة ؟

لقد تمت زحزحة الفرد فى العالم المعاصر إلى مستوى السطحية والعزلة عن طريق الصورة الآلية الميكانيكية والمادية للعالم بشكل لم يسبق له مثيل، ويحاول الفرد الذى يعيش فى ظل هذه الظروف أن يعود مرة أخرى إلى جذوره فى حضارته الخاصة أو البحث عن إجابات عن الأسئلة التى تقلقه لدى الحضارات الأخرى.

ولكننا فى نهاية الأمر لن نستطيع العثور على ما ننشده من إجابات إلا إذا نهضنا لتحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقنا. وهنا يبرز سؤال مهم هو :

أمام من ومن أجل من نحن مسئولون ؟ وكيف أتوصل إلى مسئوليتى تلك ؟

إن الإنسان المعاصر ـ الذى بات قلقاً على مصيره ـ أصبح ينقض فى ليلة ما قام بنسجه من أفكار فى نهاره ﴿ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا** ﴾[1] أو كما كانت تفعل بنيلوبىPenelope فى الأسطورة اليونانية المعروفة [2]، ويتمسك هذا الإنسان المعاصر ـ من ناحية ـ بحريته، ولكنه ـ من ناحية أخرى ـ لا يستطيع أن يظفر بهذه الحرية إلا إذا تم ربطها بأصلها، أى: بخالقها وهو الله.

---

(١) سورة النحل : آية ٩٢.

(٢) يلاحظ أن هذا البحث قد أعد فى الأصل ليخاطب الأوروبيين، ومن هنا يأتى الاستشهاد أيضاً بما هو معروف فى ثقافتهم.

وبنيلوبى المشار إليها كانت ـ كما ورد فى ملحمة هوميروس الشهيرة المسماة بالأوديسة ـ ملكة وزوجة لأودوسيوس Odysseus ملك إيتاكا Ithaka. وكان هذا الملك قد خرج لمحاربة أعدائه فى طروادة وطالت غيبته حتى ظن أنه قد مات. وفى أثناء غيابه الطويل تقدم إلى زوجته بنيلوبى كثير من العشاق يطلبون الزواج منها قائلين أن زوجها لن يعود مرة ثانية. ولكنها وفاء منها لزوجها كانت تمنى كلاً منهم بموافقتها بعد الانتهاء من نسج بساط كانت قد بدأت فى صنعه. وكانت فى الليل تقوم باستمرار بنقض كل ما نسجته فى النهار حتى تظل وفية لزوجها تنتظر عودته. وقد عاد أودوسيوس بعد ذلك وانتقم من كل العشاق الذين ضايقوا زوجته أثناء غيابه.

وينبغى أن يكون واضحاً تمام الوضوح لكل إنسان عاقل أنه يجب علينا جميعاً أن نسلك سلوكاً مسئولاً، لأن السلوك غير المسئول يرتد إلينا فى النهاية فى أية صورة من الصور. فالعمل غير المسئول يترتب عليه فى عالمنا المعاصر كوارث مفزعة لا يمكن تفادى أخطارها، نظراً لأنه قد أضحى عالماً صغيراً اختصرت فيه المسافات وتطورت فيه وسائل الاتصال إلى درجة مذهلة.

أجل ، إن الأمر قد يعنى فى بعض الأحوال انحلال العالم وانهياره؛ ومن هنا يدخل العالم أيضاً ـ بمعنى من المعانى ـ فى دوائر مسئولياتنا الكثيرة.

والأمل الذى كان يحلم به المثاليون فى كل العصور ـ والذى يتمثل فى تحقيق الأخوة لكل البشر وتحقيق السلام للجميع ـ هذا الأمل قد أصبح اليوم يمثل بصفة عامة ضرورة تحظى بالاعتراف والتأييد بصورة لم تكن قائمة من قبل.

ولكن هل يعنى ذلك أننا قد اقتربنا حقاً من تحقيق هذا الأمل أيضاً ؟

وكيف يمكن للفرد أن يسهم بنصيب فى هذا الصدد ؟

إننا جميعاً، بوصفنا أعضاء فى المجتمع الكبير الذى هو العالم، يعتمد بعضنا على بعض ـ كما هو واضح للجميع ـ ومن أجل ذلك فنحن مطالبون ـ كل فى موقعه ـ بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه.

ولكن كيف نفى بهذا المطلب ؟ وأين هى الصورة الكلية للعالم التى يمكن أن تشبع تطلعات العقل الحديث الذى ينقض باستمرار نسيج أفكاره. تلك الصورة التى من شأنها أن توجه كل فرد إلى مسئوليته بشكل محدد تمام التحديد ؟

وما معنى المسئولية عن العالم فى حقيقة الأمر ؟ وكيف يمكن أن يسهم الفرد بنصيب فى تحمل المسئولية عن العالم كله وهو الذى يتحمل بالفعل بدرجة كافية مسئوليته عن نفسه وعن أعماله أيضاً ؟

إننا إذا نظرنا من منطلق مراقب خارجى إلى مسألة الربط بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية، فإنه يمكن الإجابة عنها ببساطة على النحو التالى :

إن كلاً من هاتين المسئوليتين مرتبط بالآخر، فكل منهما متضمن فى الآخر. ونظراً إلى أن كل فرد منا عندما يتصرف حتى فى أخص خصوصيات أفعاله فإن تصرفه يكون فى داخل هذا العالم ولا يتم إطلاقاً فى فراغ، بمعنى أنه لا يتم فى مكان غير مرتبط بالعالم. ونظراً إلى أننا نعيش اليوم فى عالم مفتوح وفى مجتمعات تخضع لتأثيرات عالمية فإن المسئولية الذاتية تعد إذن ـ بمعنى معين ـ مسئولية عالمية. فكل تصرف فردى يجر وراءه دوائره الأخرى، كما أن رفض التصرف يعد أيضاً تصرفاً وله نتائجه التى تترتب عليه.

ولكن هل الشعور المستمر بضرورة المسئولية العالمية يكفى وحده لإنتاج هذه المسئولية ؟

إن من الواضح أن الإجابة عن ذلك ستكون بالنفى، وإلا فكيف يمكن أن يحدث فى عصرنا الراهن اقتراف أبشع أنواع الجرائم وأشد أعمال العنف منافاة للمسئولية والإنسانية على السواء باسم المسئولية عن العالم وباسم الأخوة بين البشر؟

هل يوجد هناك اليوم طريق مستقيم ـ ليس فقط على المستوى النظرى بل على المستوى العملى أيضاً ـ لسلوك مسئول مسئولية عالمية ؟

وعلى هذا النحو يمكن صياغة مشكلة المسئولية العالمية من منظور مراقب خارجى يرصد الأحداث. ولكننا لسنا مراقبين خارجيين لأننا نحن أنفسنا نقف فى وسط الأحداث.

فكيف يكون الوضع ـ إذن ـ من الداخل من خلال موقف فكرى، أى : من موقف كل فرد منا ؟

إن كل فرد منا عليه أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال. ومن الواضح أن هذا أمر يتطلب الصبر وطول النفس.

والإجابة عن هذا السؤال ـ بالنسبة لنا نحن المسلمين ـ تنبثق بطبيعة الحال من

منظور إسلامى. ولكن ذلك لا يعنى منظوراً محدوداً أو صالحاً فقط لجماعة معينة وإنما يعنى منظوراً كلياً شاملاً. وهذا ما سنحاول توضيحه فى السطور التالية :

ثانياً ـ المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الإسلام:

١ - المسئولية فى نظر الإسلام :

لعلنا نستطيع أن نقترب من الإجابة عن السؤال المطروح حول المسئولية عن العالم إذا تأملنا ـ عن قرب ـ كلمة مسئولية التى يدور الأمر هنا حولها.

إن الفعل «سأل» يعنى التوجه إلى طرف آخر بطلب أو مناشدة أو نداء يتطلب جواباً، ولهذا يقال ـ كما فى القاموس المحيط ـ : « أسأله سؤله ومسألته: قضى له حاجته ».

والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم للنبى ﷺ :

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾[١].

وقد يكون النداء منبعثاً من داخل الإنسان لا من خارجه. ومن الفعل «سأل» اشتقت كلمة «المسئولية». وتحمل المسئولية ـ على هذا ـ يعنى إعطاء رد إيجابى على النداء الذى يتضمنه السؤال. والتحلل من المسئولية فى المقابل يعنى إعطاء رد سلبى على هذا النداء.

والمسئولية من الصفات التى تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل إلى ما بعد انتهائه فى مراحل متدرجة على النحو التالى :

(أ) مرحلة ما قبل الفعل : وهى مرحلة نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل. والمسئولية هنا تنظر إلى المستقبل فهى مسئولية تكليف ومطالبة.

(ب) مرحلة الإجابة لهذا النداء بالإيجاب أو السلب.

(ج) مرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة. وتأتى هذه المرحلة بعد الفعل. والمسئولية هنا تلتفت إلى الماضى فهى مسئولية استجواب ومحاسبة.

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٦.

والإلزام الأدبى الذى ينطوى عليه نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل يعنى أن ذلك الشخص الذى يوجه إليه النداء له شخصيته المستقلة وله حريته فى القبول أو الرفض وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته. والمسئولية ـ بهذا المعنى ـ صفة تشريف لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة [1].

وإذا كان مفهوم المسئولية يتضمن ـ كما رأينا ـ الإجابة على النداء إيجاباً أو سلباً فإن هناك العديد من الأسئلة التى تفرض نفسها عندئذ والتى تتمثل فيما يلى:

لمن أقدم هذه الإجابة ؟ ومن هو الذى ينادينى لأجيب نداءه ؟ وكيف أتوصل إلى تحديد مصيرى بنوع الإجابة ؟ وكيف أجيب ؟ وكيف ينبغى علىَّ أو كيف أستطيع أن أعرف فى حقيقة الأمر أنى أسلك بالفعل حال الإجابة سلوكاً مسئولاً ؟

إننى إذا نظرت إلى هذا العالم بوصفه الحقيقة النهائية وليس بوصفه مجرد مرحلة أو مقدمة لعالم آخر بعد هذا العالم فإنى لا أستطيع أن أجيب فى حقيقة الأمر عن هذه الأسئلة.

فهذه الأسئلة تعد أسئلة غير قابلة للحل بالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم وعى دينى متفتح، كما أنها تعد بالنسبة للكثيرين أيضاً أسئلة لا مبرر لها وليس لها وجود حقيقى. وتتحول المسئولية الذاتية لديهم إلى **مصلحة** ذاتية وقتية أو إلى **مصلحة** الجماعة على أفضل تقدير. والمسئولية عن العالم بالنسبة لهم هى أيضاً ـ على أفضل الفروض ـ **مصلحة** عالمية ـ ونظراً لأنهم محصورون فى نطاق الصورة المادية للعالم فإنهم لا يستطيعون أيضاً أن يستمروا فى طرح الأسئلة خارج هذا النطاق. وبذلك ينتمون إلى تلك الفئة التى وصفها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [2].

---

(١) راجع: دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ٥٢ وما بعدها ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٠م، وانظر أيضاً كتابنا: مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٩ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨٣م.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

صحيح أن هناك كثيرين فى عالم اليوم على وعى بضرورة المسئولية العالمية المشار إليها، تلك المسئولية التى يصادفونها يومياً فى حياتهم، ولكنهم لا يثقون فى أية جهود لحل هذه المشكلة حلاً جذرياً بطريقة معقولة وبدلاً من ذلك ينادون بتصرف أو سلوك « عملى » ولكن دون ميل إلى البحث عن بواعثه عن قرب. تلك البواعث التى قد تكون مثاراً للشكوك.

وعلى العكس من الحيوانات فإننا نحن البشر لا نسير وفقاً لغرائزنا، فنحن كائنات عاقلة. وهذا يعنى أننا نتصرف بحرية بناء على تفكير ونسير طبقاً لما تمليه علينا عقولنا. وهذه الكائنات العاقلة لا تتبع أى قائد بلا وعى كما هو الحال مثلاً مع القطيع من الأغنام الذى يسير خلف قائد القطيع بلا وعى ويحذو حذوه حتى فى الوقوع فى الهاوية.

ونحن بأعمالنا نصنع مصيرنا. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (١).

ونحن أحرار فى أن نسلك سلوكاً عاقلاً أو سلوكاً غير عاقل. وإذا أعملنا عقلنا الواعى وقلبنا الفاهم فإنه ينفتح أمامنا عالم جديد. ولكن إذا اعتبرنا عالم المادة هو الحقيقة النهائية ولم نحاول أن نحكم عقلنا وننظر إلى أبعد من ذلك فإننا سنظل حبيسين فيه أيضاً وسيكون مصيرنا فى النهاية هو الضياع فيه.

ولكن هذا العالم المادى ليس هو الحقيقة النهائية بالنسبة للإنسان المؤمن. ومن هنا فإن الإجابة التى نبحث عنها تعد بالنسبة له أمراً ميسوراً واضحاً تمام الوضوح. فالمسلم الثابت على عقيدته الراسخ فى إيمانه الذى لا يسلم زمام أمره لهذا العالم وإنما يسلم أمره لله وحده لأنه هو الذى يهديه إلى سبيل الرشاد، ومن أجل ذلك

---

(١) سورة الإسراء : آيات ١٣ - ١٥.

فهو سبحانه محل ثقته المطلقة ـ هذا المسلم يدرك بذلك أنه بسلوكه وأعماله كلها ـ سواء أكانت أعمال القلب أو أعمال الجوارح ـ لا يقدم إجابته (التى تتضمن مسئوليته الشاملة) لهذا العالم المادى وإنما يقدمها لله وحده ـ وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾(١).

فالله وحده هو الحقيق بالتوجه إليه والاعتماد عليه وتفويض الأمر كله إليه، فالمرجع والمصير إليه لأنه رب كل شيء :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(٢).

وهكذا فإن المطالبة بالمسئولية ـ فى نظر الإسلام ـ تعد مطالبة بتقديم إجابة بطريقة حرة. فكل إنسان فى موقعه وفى اللحظة المناسبة عليه أن يصوغ إجابته (مسئولياته) فى حرية. وهنا تكمن الصعوبة أيضاً فى تقديم إجابات جاهزة للآخرين. فالصلة بين الإنسان الفرد والله صلة شخصية مباشرة لا تحتاج إلى واسطة. ومن هنا فإن النموذج المثالى يرفض التقليد إلا إذا كان مبنياً على اقتناع.

والإسلام يحث على الاستقلال فى الفعل، ويؤكد النبى ﷺ هذا المعنى حينما ينهى عن التقليد فى قوله :

« لا تكونوا إمعة : تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا » (٣).

فكل فرد عليه أن يبحث بنفسه عن الإجابات المناسبة بسلوكه المسئول. ولكن

---

(١) سورة الأنعام : الآيتان ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٤.

(٣) رواه الترمذى.

مشكلة الإنسان المعاصر تكمن فى توقفه قبل الأوان عن طرح الأسئلة وفى اعتقاده أنه يملك بالفعل الإجابات التى يبحث عنها.

ونعيد مرة أخرى طرح السؤال الملح من جديد : كيف يقدم الإنسان الإجابة الأصيلة بالسلوك المسئول ولمن يقدمها ؟

إن كل امرئ يتأمل فى موقفه الإنسانى متحرراً من كل الأحكام المسبقة سيتضح له فى النهاية ببصيرة واعية كيف يسلك سلوكاً مسئولاً إذا لم يظل واقفاً عند الإجابات الجاهزة المعطاة سلفاً. فالإنسان قد جىء به إلى هذا العالم من قوة خارجة عنه، وهذه القوة هى التى تحفظه حياً وهى التى تخرجه مرة أخرى من هذا العالم إلى عالم آخر فى وقت مجهول لديه ـ وقد جاء القرآن الكريم للإنذار والتبشير :

﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) ﴾ (١).

ويوجه القرآن الكريم السؤال للكافرين قائلاً : **﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾**(٢).

إن هناك نداء موجهاً إلى الإنسان ـ الذى يشعر فى ذاته بأنه مركز عالمه. والموقف الدينى فى هذا الصدد يطلعنا على أن الجهة التى يصدر عنها هذا النداء هى فى الوقت نفسه تلك الجهة التى تجعل للسلوك الإنسانى معنى. فما الذى نعرفه عن هذه الجهة ؟

إننى إذا رأيت صورة من الصور المرسومة أدرك أن شخصاً ما قد قام برسمها، فإذا تأملت العالم من حولى تأملاً واعياً فإنى أرى فيه أثر الخالق. ولكن هذا أمر

---

(١) سورة الأحقاف : الآيتان ١٢ ، ١٣.

(٢) سورة فاطر : آية ٤٠.

يحتاج إلى قلب فاهم وعقل واع. والإسلام لا يعرف مؤسسات وسيطة بين الله والإنسان. فهناك ـ فقط ـ الوحى القرآنى الذى جاءنا عن طريق النبى محمد ﷺ. والقرآن الكريم يقول لهؤلاء الذين يبحثون عن الهداية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

٢- الإنسان خليفة الله فى الأرض :

وإذا كنا نتحدث عن المسئولية الشاملة فى نظر الإسلام فإن هذا يتطلب معرفة موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام بصفة عامة، ويقتضى معرفة دور الإنسان نفسه فى هذا الكون حتى تتضح أمامنا معالم الصورة التى يرسمها الإسلام لتلك المسئولية الكلية.

إننا إذا تأملنا كلمة «إسلام» ذاتها فسنجد أنها مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ «السلام». والإسلام فى جوهره دين جاء لينشر السلام فى العالم. وإذا كان قد شرع الحرب فإن ذلك يأتى فقط فى حدود خدمة هذا السلام وترسيخ قواعده. ومن هنا فإن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لصد العدوان.

فالقتال فى سبيل الله ـ الذى كتبه الله على المؤمنين ـ لا يجوز أن يوجه إلا ضد هؤلاء الذين يعتدون على المؤمنين ويعكرون عليهم صفو السلام ولا يجوز للمسلمين أن يبدأوا القتال. وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(٢).

والمسلمون ملزمون بوقف القتال ضد العدو إذا أبدى ميلاً إلى السلام، وذلك استجابة للأمر الإلهى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى

---

(١) سورة الحديد : آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة : آية ١٩٠.

﴿اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

والإسلام لا يكتفى بمنع العدوان ولكنه فى الوقت نفسه يطالب بالعمل الجاد لإقامة السلام والعدل، فليس هناك طريق وسط بين الخير والشر. ومن ليس مع الله فهو فى الجانب المضاد لله. ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿وَمَا لَكُمْ لاتُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾[2] أى : وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

إن الحياة فى هذا العالم سريعة الزوال والشىء الذى يبقى هو العمل الصالح. ويصور لنا القرآن الكريم أمر هذه الحياة أبلغ تصوير فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾[3].

ويقول القرآن فى سورة لقمان :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[4].

فإذا أحببنا هذا العالم فينبغى أن نفعل ذلك ونحن على ذكر من أن كل الخيرات والطيبات التى نتمتع بها فى هذا العالم تأتينا من عند الله، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

---

(١) سورة الأنفال : آية ٦١.

(٢) سورة النساء : آية ٧٥.

(٣) سورة الكهف : الآيتان ٤٥ ، ٤٦.

(٤) سورة لقمان : آية ٢٢.

عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1].

وفضلاً عن ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان كل شيء في السموات والأرض لعل ذلك يكون داعياً له إلى التفكير في هذه النعم التي لا تحصى ولا تعد. وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[2].

ومن الأمور البديهية في هذا الصدد أن هذه النعم الإلهية التي أنعم الله بها على الإنسان ترتبط بمطالبة الإنسان ألا يهمل خلق الله المسخر له، بل يجب عليه أن يتحمل مسئوليته في الاهتمام به والعناية بشأنه. ولهذا فإن مسئولية الإنسان عن هذا العالم تشمل الخلق كله ولا تنصبّ فقط على البشر، بل تشمل أيضاً الحيوان والنبات والأرض كلها. ومسئولية الإنسان إزاء هذا العالم وإزاء الخلق كله ـ الذي يعتمد عليه الإنسان أيضاً ـ هذه المسئولية لا ينبغي أن تعرف حدوداً تقف عندها. ولذلك يقول الرسول الكريم ﷺ :

« **إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل** »[3].

ألا يعني هذا أننا ما دمنا عاملين على هذا النحو والأمل يحدونا من أجل عالمنا أننا نسلك سلوكاً مسئولاً على مستوى المسئولية العالمية؟

إن الإسلام إذ يطلب من المسلم التوجه إلى الله والخضوع لأمره فإن ذلك لا يعني على الإطلاق الاعتزال عن هذا العالم أو الانسحاب منه، بل على العكس من ذلك يقتضي هذا الطلب أن يأخذ الإنسان المسلم هذا العالم بوصفه مجالاً لأداء مهمته في هذه الحياة وبذلك يكون سلوكه على مستوى المسئولية العالمية.

---

(١) سورة الإسراء : آية ٧٠.

(٢) سورة الجاثية : آية ١٣.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (انظر طبعة اسطنبول : الكتب الستة مجلد ٢٢).

فالإنسان ـ كما يشير القرآن الكريم [1] ـ خليفة الله في الأرض. وقد أعطى الله العقل للإنسان ليمكنه من أداء المهمة التي أنيطت به في هذا العالم. والله الذي جعل الإنسان خليفة له في الأرض هو رب هذا الإنسان ومن أجل ذلك فله حق الطاعة المطلقة على الإنسان. وهذه الطاعة لله هي التي تحدد مصير الإنسان.

والقرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان عندما أضله الشيطان وأغراه وعصى آدم أمر ربه كان مصيره الخروج من الجنة، وإحلال العداوة بين بني البشر محل السلام والسعادة، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [2].

ثم اتجهت عناية الله مرة أخرى للإنسان الذى طرد من الجنة فغفر له وبيَّن له طريق الهداية ووعد السائرين فى هذا الطريق بأحسن العواقب :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [3].

إن المؤمن الحق يقف بكليته فى الحاضر لا يخشى المستقبل ولا يحزن على الماضى، وسلوكه سلوك هادف ومسئول وفعال. والمسئولية العالمية أمر لا ينفصل عن تكوين الإنسان وهى التى تميزه تمييزاً جوهرياً عن بقية المخلوقات الأخرى، فقد أبت هذه المخلوقات جميعها أن تتحمل أمانة التكليف والمسئولية بكل ما تحمل من معنى. فقد عرض الله سبحانه على جميع المخلوقات هذه الأمانة وتلك المسئولية ـ عرضها على السموات والأرض والجبال :

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾ [4].

وقد عقب القرآن على ذلك مباشرة بقوله عن الإنسان فى هذا الموقف :

---

(١) انظر سورة البقرة : آية ٣١.

(٢) سورة البقرة : آية ٣٦.

(٣) سورة البقرة : آية ٣٨.

(٤) سورة الأحزاب : آية ٧٢.

﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾. وقد تعجَّب الملائكة حين أخبرهم الحق تبارك وتعالى بإرادته التى قضت بجعل الإنسان خليفة فى الأرض فقالوا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ (١) ، وقد أجابهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (٢) فقد علَّم آدم الأسماء كلها(٣) ومنحه عقلاً يعرف به طبيعة الأشياء.

٣- الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة :

نحن جميعاً ندرك مدى ما يعانيه الإنسان من التمزق أو الانشقاق الداخلى ويرجع السبب فى هذه المعاناة إلى أن الإنسان ـ من ناحية ـ قد أبى إلا أن يتحمل المسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض بما يترتب عليها من تبعات ضخام فى إقامة العدل وإقرار الحق والالتزام التام لأمر الله، ومن ناحية أخرى نجده واقعاً تحت ضغوط عديدة من الشهوات والميول والنزعات وقصور العلم وقصر العمر وحواجز الزمان والمكان، والتى تحول جميعها دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد. ومن هنا كان الإنسان ظلوماً لنفسه، جهولاً لطاقته (٤) فكيف السبيل إلى حل هذا الإشكال ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ (٥).

فالله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ويعلم خطرات النفس وما تخفى الصدور ـ لن يخفف عن الإنسان ضغط هذه المعاناة إلا

---

(١) ، (٢) سورة البقرة آية : ٣٠.

(٣) انظر سورة البقرة : آية ٣١.

(٤) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٥ ص ٢٨٨٤ وما بعدها ـ طبعة دار الشروق.

(٥) سورة الرعد : آية ١١.

إذا اتجه إليه الناس فى كل سلوكهم وفكرهم وأعمالهم وعادوا مرة أخرى مقرين بربوبيته وحده سبحانه . . ذلك الإقرار الذى هو مغروس أصلاً فى فطرتهم، كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ (١) .

والصورة القرآنية للعالم تشتمل على المؤمنين فى جانب، والكافرين والمنافقين فى الجانب الآخر. يقول الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) .

ولكن هاتين الجماعتين من المؤمنين والكافرين ليستا منفصلتين انفصالاً تاماً عن بعضهما البعض؛ فالطريق إلى الإيمان مفتوح باستمرار أمام الجميع لأن الله غفور رحيم . . وطريق الإيمان مفتوح لكل الناس لأن هناك وحدة أساسية قائمة بين الناس جميعاً. ويشير القرآن الكريم إلى هذه الوحدة فى كثير من الآيات، ففى سورة النساء مثلاً نقرأ قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٣) .

ونظراً لأن الله قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة فإن المؤمن بطبيعته منفتح ـ بصفة أساسية ـ على العالم وعلى غيره من الناس الذين يشكلون الأجزاء الكثيرة الأخرى لذاته هو ـ إن صح التعبير.

وهكذا يمكن القول بأن السلوك المسئول للإنسان يعنى خطوة متقدمة على طريق وحدة البشر وذلك بتحقيق معرفة هذه الوحدة فالجميع أبناء آدم.

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٢.

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٢.

(٣) سورة النساء : آية ١.

ومعـرفة الوحدة النهائيـة لكل البشر تسـير ـ جنباً إلى جنب ـ مع تحـقيق هذه الوحدة فى ترابط ووئام وحب مـتبادل مع إخـواننا فى الإنسانية ويتـمثل ذلك فى سلوكنا المسئول.

وبمعرفتى للوحدة الأساسيـة مع كل الناس ـ عن طريق ارتباط نفسى بنفوسهم وعن طريق انفتاح وعيى الدينى ـ يتـحول بذلك سلوكى إلى سلوك مسئول، أى : سلوك واع بمسئوليته مدرك لواجباتها.

والإنسان المتدين تتحقق معرفته لوحدته مع كل البشر باستعادة معرفة ذاته فيهم واعتبارهم صنـواً له، وبالسعى المستمر ـ عن طريق السلوك المسئـول ـ إلى التسامح والود وفهم الآخـرين وفهم مـعاناتهم، والصـبر ـ الذى لا يكل ـ مع نفـسه ومع الآخرين.

والمسئولية الذاتية ـ إذا فُهمت فهماً سليـماً ـ تعد دائماً مسئولية ذاتية أمام الله، وبهذا المعنى تعـد أيضاً مسـئولية عالمـية فقد خلق الله الخـلائق الكثيرة والشـعوب العديدة لكى « يعرف » بعضهم بعضاً. وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (١).

ولو أراد الله سبحانه أن يجعل الناس جمـيعاً أمة واحدة لفعل، ولكنه أراد أن يختبر الخلق بهذه التعددية القائمة :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (٢).

وعلى الرغم من كل الاخـتلافات الكثـيرة بين الناس فإنهم فى حـقيقـة الأمر متساوون، وهم جـميعاً أمام الله سواسية كـأسنان المشط، وهم يتفاضلون فقط فى درجة التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣.

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨.

(٣) سورة الحجرات : آية ١٣.

وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ :

« يا أيها الناس : ألا إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »(١).

والإسلام يطلب منا أن نحقق وحدة الإنسانية وأن نخرجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود الفعلى، وأن نتوصل إلى السلام، بالأخوة فى العقيدة.

ومسئوليتنا التعبدية فى الإسلام ـ المنبثقة من الهدف الكلى للخلق المتمثل فى العبادة كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢) .

هذه المسئولية التعبدية تعد أيضاً مسئولية عالمية تشمل كل المخلوقات، والبشر منهم على وجه الخصوص بوصفهم خلفاء لله فى الأرض مثلنا، وهم بذلك أخوة لنا.

(ب) حرية الإنسان ومصيره :

يشير القرآن الكريم إلى أننا لا نستطيع أن نجبر أحداً من الناس على الإيمان بالله، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يترك ذلك لإرادتهم الحرة.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : **﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾** (٣).

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم :

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤١١ (المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ـ بيروت) انظر أيضاً سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٨٩ ـ طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ١٤.

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦.

(٣)سورة يونس : آية ٩٩.

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1].

ولكن حرية الإنسان ليست حرية مطلقة؛ فالإنسان يستطيع أن يختار بين الخضوع لإرادة الله الذى خلقه أو البحث لنفسه عن أرباب آخرين. وفى هذه الحالة الأخيرة يكون مصيره الضياع والخسران. أما كون حرية الإنسان ليست بالحرية المطلقة فإن ذلك يرجع إلى أنها محددة عن طريق إرادة الله، ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها، فإرادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة.

حقاً يقول القرآن الكريم : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[2]. ولكن هناك بعض الإشارات التى تدلنا على كيفية فهم ذلك فهو سبحانه ـ كما تقول تكملة الآية السابقة ـ :

﴿ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾.

فالله يطلب منا أن نخشاه ونتقيه وأن نمتثل لإرادته، ولكنه فى الوقت نفسه هو الغفور الرحيم الذى بيده غفران الذنوب جميعاً ما عدا الشرك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[3].

ومن ذلك يتضح لنا أن الله سيتجه بغفرانه وعفوه إلى كل من يتجه إليه ويلجأ إليه : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[4] ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[5].

أما من يتجه بكليته إلى هذا العالم المادى ويسلم قياده إليه ويُعرض عن التوجه إلى الله فإنه ـ بعمله هذا ـ يكون قد حدد مصيره بنفسه:

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٩.

(٢) سورة المدثر : آيات ٥٤ ـ ٥٦.

(٣) سورة النساء : الآيتان ٤٨ ، ١١٦.

(٤) سورة غافر : آية : ٦٠.

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٦.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ (١).

وإذا كان هذا هو مصير من اتجه إلى غير الله فإن للمؤمن مصيراً مختلفاً، لأنه يدرك بنور إيمانه وبصيرته ما لا يدركه الجاحد. فالمؤمن يدرك أن أصله الحقيقى لا يكمن فى تجميع تصادفى أو عشوائى لأية خلايا، فهذه الخلايا ذاتها لا تستطيع بذاتها أن تخلق ذاتها فضلاً عن أن تقوم بمثل هذا العمل التجميعى.

والله وحده هو الذى خلقنا وخلق كل شىء وقدَّره تقديراً، وهو الذى يحفظ حياة كل شىء، إنه سبحانه ذو القدرة المطلقة التى يخضع لها كل شىء فى السموات والأرض، والتى يتجه إليها الإنسان عندما تحيط به النوائب، ومن أجل ذلك فلا بد أن يكون مسئولاً أمامها عن كل أعماله.

ويدرك المؤمن كذلك أن عالم المادة ـ الذى يمكن إرجاعه أيضاً إلى الطاقة طبقاً لأحدث النتائج التى توصل إليها علماء الطبيعة ـ لا يشكل الواقع الحقيقى. ومن أجل ذلك يدرك المؤمن أيضاً أن الصراع من أجل أشياء هذا العالم المادى ـ هذا الصراع الذى يؤلب الناس ضد بعضهم بعضاً ويجعلهم متعادين ـ يعد صراعاً انتحارياً. فنحن ندمر أنفسنا إذا أخذنا أشياء هذا العالم المادى على أنها الهدف الأخير.

وبدلاً من أن نخسر ذاتنا فى هذا العالم ونبيع له أنفسنا لنصبح مستبعدين لأشيائه ينبغى علينا ـ على العكس من ذلك ـ أن نبيع هذا العالم الأرضى فى سبيل العالم الآخر، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (٢).

---

(١) سورة طه : الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) سورة النساء : آية ٧٤.

وهكذا نرى أن الجهاد فى سبيل الله هو فقط لهؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. فهناك ـ إذن ـ طريقان فحسب أمام الإنسان : طريق الخير وطريق الشر. فإذا لم نجاهد فى سبيل الله فنحن نجاهد فى سبيل الشر. وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة فى وضوح تام فى قول الله تعالى :

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ** ﴾[1].

ولكن إذا قلنا إن هذا العالم لا ينطوى على شىء يمكن اعتباره هدفاً نهائياً فليس معنى ذلك أن الإسلام يحتقر هذا العالم. فالأمر على العكس من ذلك تماماً. فهذا العالم الذى خلقه الله وأنعم به علينا هو مجال التزاماتنا وهو مسئوليتنا، فطريقنا إلى الله يمر عبر هذا العالم.

أما الصياغة الإسلامية للمسئولية الذاتية وللمصير الذاتى للإنسان فتعبر عنها الآية الكريمة : ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ** ﴾ [2].

فالإنسان مطلوب منه أن يجاهد فى سبيل الله، وهو فى ذلك لا يتحمل إلا مسئولية عمله. ويدخل ضمن هذه المسئولية الذاتية وهذا المصير الذاتى للإنسان اعتبار الآخر صنواً لنا نحب له ما نحب لأنفسنا ونكره له ما نكرهه لأنفسنا ما دام هذا الآخر مشاركاً لنا فى الجهاد فى سبيل الله ومن أجل خير هذا العالم. ولهذا يقول النبى ﷺ :

«**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[3].

(ج) الإيمان والمسئولية :

إن المؤمن الذى يبحث لنفسه عن السبيل إلى ترسيخ عقيدته وتعميقها والحفاظ

---

(١) سورة النساء : آية ٧٦.

(٢) سورة النساء : آية ٨٤.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٦٧ (انظر الكتب الستة مجلد ٤ طبعة اسطنبول).

عليه باستمرار ينبغى عليه أن يفعل الشيء ذاته بالنسبة لإخوانه فى العقيدة. ومن هنا تتضح مسئولية الذين وهبهم الله العلم والمعرفة فى تبصير غيرهم وتنوير طريقهم. والإسلام من أجل ذلك يقارن جهود العلماء بدماء الشهداء، فقد ورد فى حديث شريف :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء » (١).

وهذا الموقف الذى يتخذه الإسلام إزاء العمل العلمى لا يفهم إلا إذا أدرك المرء أن العلم فى الإسلام يجب أن يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ـ باستمرار ـ بالاستعداد الحقيقى لتحمل مسئولياته.

والملاحظ فى عالم اليوم الذى وصل فيه التقدم العلمى إلى درجة مذهلة ـ أن غياب المسئولية الأخلاقية فى مجالات العلوم والتكنولوچيا، وفى التقدم بصفة عامة يؤدى إلى أخطار عظيمة تهدد البشرية كلها بالدمار.

وفى تاريخ حياة العلماء المسلمين ـ سواء أكانوا علماء فى الدين أو فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو فى الطب أو فى أى مجال آخر من مجالات العلوم ـ يرى المرء أنهم كانوا دائماً حريصين على التوقف عن أعمالهم عندما يحين وقت الصلاة ليقوموا بأدائها حتى يظلوا فى صلة دائمة مع الله تذكرهم بمسئولياتهم الملقاة على عاتقهم، فالعلم ينبغى أن يكون مرتبطاً على الدوام بالأخلاق. والعقيدة والأخلاق متلازمتان لا انفصام بينهما وتشكلان وجهين لعملة واحدة.

وقد لخص النبى ﷺ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢).

---

(١) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٣٧ ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (١٩٦٨م). وقد رواه ابن الجوزى فى كتاب العلل (راجع فيض القدير مجلد ٦ ص ٤٦٦ ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢م).

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد.

ومن هذا المنطلق يعد الموقف اللا أخلاقي أو الإلحادي لبعض العلماء في العصر الحديث والذي أنتج عالماً يسوده الرعب والفزع ـ يعد موقفاً مرفوضاً من العالم المسلم. والمطلوب من العالم المسلم ـ على عكس الموقف المشار إليه ـ هو أن يوجه جهوده العلمية نحو السعي في نشر السلام في العالم باعتبار ذلك غاية نهائية لهذه الجهود العلمية، ويتحقق ذلك بالجهاد في سبيل الله ضد نفسه وضد الظلم، وبعبارة أخرى: يتحقق ذلك بالجهادين الأصغر والأكبر.

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام لا يعني رفضاً لهذا العالم أو تخلياً عنه. فالاتجاه المطلق إلى الله والتسبيح المستمر والتقديس الدائم من الأمور التي تختص بها الملائكة. أما الإنسان فإنه مطلوب منه أن يسلم نفسه لله، ومن ناحية أخرى مطلوب منه أيضاً أن يمارس وظيفته في هذا العالم بوصفه خليفة الله في الأرض. ومن أجل ذلك أصبح متفوقاً على الملائكة الذين طُلب منهم ـ لذلك ـ أن يسجدوا لآدم [1].

والناس جميعاً ـ بالنسبة للمسلم الملتزم بعقيدته - يعدون إخوة بصفة أساسية، غير أن المنافقين والكافرين قد عزلوا أنفسهم بأنفسهم من هذه الأخوة. فقد خلق الله الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، أي : لكي يحاول كل منهم أن يفهم الآخر ويحترمه، والفرق الوحيد الذي له اعتباره في هذا الصدد يتمثل في درجة التقوى. فأفضل الناس لدى الله هو أكثرهم عدلاً وأكثرهم صلاحاً، أي : أتقاهم [2].

والإيمان الشكلي لا يدخل صاحبه في عداد المؤمنين الحقيقيين. ومن هنا يقول القرآن الكريم في شأن هؤلاء الشكليين : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[3].

فعلامات الإيمان الحق هي تلك التي وردت في سورة البقرة في قوله تعالى :

---

(١) انظر سورة البقرة : آية ٣٤.

(٢) انظر سورة الحجرات : آية ١٣.

(٣) سورة الحجرات : آية ١٤.

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١).

وأعمال الإنسان لا تذهب سدى ، فالله سبحانه يعلم كل شيء، وكل أعمال الإنسان مسجلة له أو عليه، ونتيجة هذه الأعمال تعود على صاحبها فى نهاية الأمر ـ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ـ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾(٢).

والسؤال فى هذا المقام هو : كيف يجد المؤمن طريقه فى عالمنا المعاصر، وكيف يتحمل مسئوليته العالمية المعاصرة فى عالم توجه إليه فيه من شتى الجوانب مطالب والتزامات مختلفة أشد الاختلاف.

لقد جاء القرآن الكريم ليبين للمؤمنين الطريق المستقيم ويوجههم إلى سبيل الهدى والرشاد، فهو رحمة وشفاء، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن معيار التفاضل بين الناس يتمثل فى درجة التقوى. وتتمثل هذه التقوى فى أن يتجه المؤمن إلى عبادة الله الذى خلقه، وأن يرجو غفرانه ورحمته، وأن يتجه إليه بالتوبة، وأن يدعوه ويلجأ إليه فى كل وقت فالله دائماً على استعداد لأن يجيب دعاء من يدعوه.

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم على لسان صالح عليه السلام :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (٤).

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٥.

(٢) سورة الجاثية : آية ١٥ (انظر أيضاً سورة الإسراء : الآيات ١٣ ـ ١٥ ، وسورة فصلت : آية ٤٦).

(٣) سورة الإسراء : آية ٨٢.

(٤) سورة هود : آية ٦١.

وحياة المؤمن كلها ينبغى أن تكون عبادة متواصلة وذكراً مستمراً لله فذلك هو طريق الفلاح : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)

ومن هنا يعطى الإسلام للممارسة العملية للعقيدة فى حياة الناس ومعاملاتهم اليومية نفس الأهمية التى يعطيها للأسس الخمسة التى يقوم عليها الإسلام وهى الشهادة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام.

ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢).

وهكذا لا يجوز قصر مفهوم العبادة فى الإسلام على المعنى الضيق الذى يعنى أداء الشعائر الدينية المعروفة. فكل عمل يقوم به المسلم فى حياته اليومية ـ دينياً كان هذا العمل أم دنيوياً ـ يعد عبادة ما دام قد قصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد.

ومن هذا المنطلق نجد الإسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة، تقديراً من الإسلام لقيمة العمل الذى لا تقوى الحياة إلا به.

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (٣).

وقد روى أن النبى ﷺ رأى رجلاً يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل : هذا عابدنا. فقال عليه السلام : « ومن يؤكله ؟ » ، قالوا : كلنا يؤكله. فقال عليه السلام : «كلكم خير منه» (٤).

---

(١) سورة الجمعة : آية ١٠.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٢.

(٣) سورة الجمعة : آية ١٠.

(٤) راجع : معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم العثمان، ص ١٤٩ مؤسسة الرسالة ١٩٧٢م.

(د) دوائر المسئولية :

ومن خلال موقف التقوى هذا يتجه المؤمن إلى هذا العالم، ويحاول كل فرد فى موقعه ـ بوصفه خليفة الله فى الأرض ـ أن يسلك سلوكاً مسئولاً معتمداً فى ذلك على ثقته الكاملة فى الهداية الإلهية الرحيمة.

وما يمكن أن يطلق عليه الدائرة المركزية للمسئولية ـ أو المحور الذى تدور عليه المسئولية ـ يتمثل فى المسئولية الذاتية.

ولكن الإسلام لا يطلب من المسلم ما هو فوق طاقته. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ (١).

وفى حديث شريف يتحدث النبى ﷺ عن مسئوليتنا عن كل ما نملكه مادياً وأدبياً، فقد روى الترمذى أن النبى ﷺ قال :

« **لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم** » (٢).

والإنسان لا يستطيع تحمل مسئوليته تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة إلا إذا تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليمة. والتزامات الإنسان تجاه المجتمع الإنسانى ليست التزامات مفروضة عليه من الخارج وإنما هى التزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى.

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية. فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى. والإنسان الذى يتنكر لالتزاماته الخلقية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦.

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٦١٢ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ١٤).

الإنسانيـة. ونظراً إلى أن الإنسان بطبـيعتـه كائن اجتـماعى مـحتاج إلى المجـتمع الإنسانى فإن هذه الحـالة بالنسبة له تعد أمراً مميتـاً؛ ولهذا يبدو أمراً غريبـاً وموقفاً متناقضاً عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها [١].

وهكذا لا يجوز ـ بأى حال من الأحوال ـ أن يتجـاهل المرء أو يتجاوز حقوق الآخـرين وما لهم عليـه من التزامـات. وفى بعض المواقف يتـوجب على المرء أن يشهد على نفسه لصالح غيـره حتى يكون عادلاً أمام الله. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ [٢]

وقد تحدث النبى ﷺ عن دوائر المسئولية فقال :

« **كلكم راع وكلكم مـسئـول عن رعيـته : الإمـام راع ومسـئول عن رعـيتـه، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته** » [٣].

والقرآن الكريم يربط ربطاً واضحـاً ـ لا لبس فيه ولا غموض ـ بين المسـئولية الذاتية والمسـئولية العالمية فى قـوله تعالى : ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[٤].

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى إنسان مع قيمة البشرية كلها، لأن الإنسان من حيث هو إنسان بالنسـبة للمؤمن يعد خليفـة لله. فالله قد نفخ فيه من روحـه كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [٥].

---

(١) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٤٠.

(٢) سورة النساء : آية ١٣٥.

(٣) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ١).

(٤) سورة المائدة : آية ٣٢.

(٥) سورة الحجر : آية ٢٩.

وإذا لم أعرف ذاتى فى نفسى على حقيقتها ـ والتى لا تمثل بأى حال من الأحوال فى الجانب المادى ـ فإننى لن أستطيع أن أعرف الذات فى الآخرين، بل سيكونون بالنسبة لى وجوداً مادياً. وفى ظل هذه الظروف يكون المرء فى صراعه مع الآخرين حول ماديات الحياة مستعداً لإزاحتهم من طريقه بتدمير حياتهم.

أما إذا سلك المرء سلوكاً مسئولاً مسئولية ذاتية فإنه سيسلك فى الوقت ذاته سلوكاً مسئولاً مسئولية عالمية؛ فكلاهما مرتبط بالآخر وكلاهما مكمل للآخر.

ومن ذلك يتضح أن موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السلبية. فليس يكفى أن يعمل الإنسان الخير أو أن يمتنع عن فعل الشر، بل يجب أن يكون له موقف إيجابى تجاه الظلم. فلا يجوز لنا أن نسكت عندما نرى الظلم يقع على إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد، بل يجب علينا أن نساعد المضطهدين والمظلومين ـ وما أكثرهم فى عالم اليوم ـ وذلك بقدر ما نستطيع وأن نحاول إنقاذ من وقعوا فى محنة أو من حلّت بهم كارثة. ومن أجل ذلك يقول النبى ﷺ:

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »(١).

ويقول ﷺ أيضاً: **« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل: كيف أنصره ظالماً ؟ قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره »** (٢).

والمطلوب منا ـ إذا أردنا ألا نكون من الخاسرين ـ هو أن نتحلى بالإيمان والسلوك القويم وأن نتواصى جميعاً بالحق والصبر. وفى ذلك جاءت سورة العصر تضع أمامنا هذه الحقائق لتكون دستور حياتنا ودليل سلوكنا:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (٣).

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا أن

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة ـ اسطنبول مجلد ٤).

(٢) رواه البخارى والترمذى وأحمد (انظر فيض القدير ج ٣ ص ٥٨ دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م).

(٣) سورة العصر.

يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر.

وقد ورد عن الإمام الشافعى قوله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم [١].

فما هو هذا الحق وما هو هذا الصبر ؟ لقد تكفلت آيات القرآن بتوضيح المقصود من ذلك فى مواضع كثيرة نكتفى منها هنا بموضعين اثنين فقط كمثال لما نود الإشارة إليه:

فقد جاء فى سورة الكهف ـ بصدد الحق ـ قوله تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [٢].

وجاء فى سورة النحل ـ بصدد الصبر ـ قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [٣].

ويمكن فهم السلوك العالمى المسئول على خير وجه إذا نظرنا إلى الناس جميعاً فى عالم اليوم بوصفهم جماعة واحدة تستقل سفينة واحدة تمخر بهم عباب البحر. فمصيرهم مشترك.

ومن أجل ذلك يجب عليهم أن يتفادوا أى خلل يمكن أن يتسبب فى إعطاب السفينة وإغراقها. وقد صور النبى ﷺ مثل هذه الحالة تصويراً رائعاً حين قال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» [٤].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٥٤٧ ـ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩م.

(٢) سورة الكهف : آية ٢٩.

(٣) سورة النحل : الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨.

(٤) صحيح البخارى ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة ـ اسطنبول مجلد ٤).